رواية

عبرة الاذهان

في

غوائل بنت الحان

THE EVILS OF INTEMPERANCE.

ان كان فيك من التعقل ذرةٌ
فاحذر غوائل كاس بنت الحانِ
واربأْ بنفسك ان تحطَّ فتزدرى
او ما امامك عبرة الاذهانِ

للمعلم اسكندر عطيه

طُبع في المطبعة الاميركانية في بيروت سنة ١٩٢٨

مقدّمة

الحمد لله الذي خلق الانسان . وشرّفهُ بالعقل عن سائر الحيوان . اذ

لولا العقول لكان ادنى ضيغمٍ

ادنى الى شرفٍ من الانسانِ

اما بعد فانهُ لمـا طغى المسكر واتى بجهد البلاء . وذهب بعقول كثيرين من ابناء حواء . وهو اقبح العوائد وعدو السعة وجالب كل شقاء . اهتمّ العقلاء في كل اينٍ وآنٍ لاصلاح الحال . وقاوموهُ تارةً بالخطب وطوراً بالرسائل لمنع سريان سمو القتال . ولما كان لا يزال يفشو ويفعل فعلاً ذريعاً بالجهلاء . ويوقعهم في الهلاك وجهد البلاء . راى من يهمهم خير العباد ويهتمون بوسائط النفع والارشاد . ان تبين اضرار السكر باسلوب رواية . فعنيت بتأليف هذه طبقاً للغاية . وسميتها "عبرة الاذهان . في غوائل بنت الحان" وانا اسأل الله ان يجعلها نافعة للقريب . فهو حسبي واليهِ انيب

رواية

عبرة الاذهان

في

غوائل بنت الحان

الفصل الاول

باسمة

هي باسمة ابنة مبسام احد الرجال العظام ماتت امها وهي صغيرة وقتل ابوها واخواها في احدى الحوادث المشومة . فامست وحيدةً فريدة يتيمة لطيمة ولم يكن عمرها حينئذٍ سوى احدى عشرة سنة لكن دلائل الحذق والنباهة كانت بادية على وجهها الجميل فتولى امرها رجل من ذويها اسمهُ كامل رقيق العواطف حسن السيرة والسريرة

تجدُ المروّةُ والفتوّةُ والابوّ
ةُ فيهِ كل مليحةٍ اخواتهـا

فاخذ يعتني بها اشد الاعتناء ثم عزم ان يسافر بها الى مدينة

تدعى السعدية قصد الاقامة فيهـــا وفي نيتو ان يضع باسمة في احدى مدارسها لتتروّض بالمعارف وتحلى بالآداب . ولما جاء الوضع المعين للسفر خرج بها من الروضة مدينة آبائها وفيما هما يبتعدان عنها التفتت باسمة عن ظهر مطيتها ونظرت اليها وعيناها مغرورقتان بالدموع ثم تنهدت ولم تتكلم لكنهـــا عنت بتلك النظرة شيئاً كثيراً فكانها ارادت بلسان الحال ان تقول "يا مدينة قبور آبائي العظيمة هل اعود اليكِ بعد هل اراكِ بعد . لوعت قلبي فيكِ المصائب وانا صغيرة فهل تنجو منها حياتي في غيركِ متى كبرت . لست اعلم ربما يكون هذا هو وداعي لكِ . فلكِ مني السلام" : ثم حولت عنهـــا نظرها وارسلت العنان وسارت وسار كامل بجانبها وجعل يؤانسها ويلاطفها ويقص عليها قصصاً لطيفة ليسليها ولما قطعا مسافة في الطريق كان يعلمها باسماء الاماكن التي كانا يمرّان بها او يشاهدانها عن بعد

وما زالا سائرين يطويان الطريق حتى وصلا الى السعدية فحلاّ بها ولما استقرّ بهما المقام قصد كامل ان يتنزل بباسمة الى اسواق المدينة واكنافها ليريها ما هنالك من الغرائب قبل ادخالها المدرسة

وكانت المدينة مبنية على مكان مرتفع وهي انيقة البناء واسعة الاسواق كثيرة المتنديات جيدة المواء تحدق بها الحدائق الناضرة

ويكتنف تلك الحدائق سهل واسع يحيط بهِ البحر على شكل نصف دائرة وفي وسط المدينة نهرٌ كبير يجري متعرجاً في ذاك السهل يروي اكثر اراضيهِ ويصب ما بقي من مائهِ في البحر ولا يرويهِ . ولما نزل بها كامل الى اسواق تلك المدينة واراها ما هو ممتاز فيها وفي ضواحيها سرَّ قلبها وامتلأ شكراً لهُ لعظم اهتمامهِ بها . ثم انهُ بعد ايام ذهب بها الى احسن مدرسة من مدارس البنات ووضعها فيها وقد اعلم الرئيسة بحالها لتقوم لها مقام ام تربيها وكانت الرئيسة على جانب عظيم من اللطف فرقت لها وانعطفت اليها وجعلت تعتني بها اخص الاعتناء وقد اعجبها ما رأتهُ من وداعتها وحسن سلوكها وكمال طاعتها

واخذ كامل يعمل بالتجارة وهو مرتاح البال من جهتها وكان يزورها المرَّة بعد المرَّة يتفقد راحتها ويسأل عن سلامتها.

فباسمة هذه لما انتهت من المدرسة مدة اقامتها خرجت منها واللطف يزين اعتدال قامتها واخصر لثامها عن غادة بديعة الجمال مهذبة الخصال تحل الملاحة حيث تحل وتجذب اليها القلوب والابصار بطلعة لا تمل . فكلف بها فتى كريم الشمائل اسمهُ همَّام من اصحاب الرفعة والجاه وخطبها ثم اقترن بهـــا وقد شملهُ واياها السرور وصفت لهما الايام ولا سيما باسمة فانهُ قد سرى همها وسلي غمها ورأت ان قد تخطتها خطوب الدهر وتخلص قلبها من حبائل الغمّ والقهر

ولما زُفَّت باسمة الى همام سرَّ كامل بذلك سروراً عظيماً اذ كان هو نسيبها الوحيد في تلك المدينة واذ لم يعد ما يشغل فكره من جهتها عزم على السفر الى الديار المصرية حيث انفتح له باب واسع للتجارة فيها فودع باسمة وهماماً وسافر مشيعاً منهما بالسلام فاستوحشت باسمة لبعده اذ كانت تستأنس بولاية نسيبها وكان وليها وبمقام اب لها الا ان هماماً لم يترك وسيلة لسرورها الا وسعى بها بكل اهتمام وهكذا اخذت تمر الايام. وكان بعد نحو سنتين من عهد اقترانهما انهما رزقا غلاماً بهي الطلعة سمياه فؤاداً فازداد سرورهما وعظم حبورهما وكانت باسمة تجلس به في البيت وتضعه على حضنها وهي تبتسم له شاخصة اليه وتقبله منحنية عليه وتلاعبه وتناغيه وتقول وهي مبتهجة فيه

يا حبذا ريح الولد ريح الخزامي في البلد
اهكذا كل احد ام لم يلد مثلي ولد

وكان همام زوجها يذهب الى ضيعة له يقال لها النرجسية تبعد عن المدينة مسافة خمسة اميال وبعد ان يدير هناك اعماله وينهي اشغاله يعود الى بيته راكباً على فرس كريم متبوعاً بالحاشية والخدم فتستقبله باسمة احسن استقبال وتقدم له المرطبات حالاً ثم تجيء اليه بعد ذلك بالغلام وهي بادية الابتسام فياخذه من يدها ويقبله ثم يرجعه اليها فتحمله وكان قلبها يطفح بذلك سروراً وحسبت ان الايام قد سالمتها فلا توجه اليها تكديراً

الفصل الثاني

بكاء باسمة

اما الايام فما لبثت ان هادنت باسمة بضعة اعوام حتى عطفت عليها عطفة الحنق المغتاظ . وطعنتها طعنة هائلة بسنان النوائب الحاد فالقتها وآ اسفاه صريعة الاحزان مهدودة الاركان وذلك انها بينما كانت تلاعب الطفل وتسليه وهي على اتم سرور وقف امامها بغتة احد الخدم وعليه مظاهر الجزع والاكتئاب واخبرها بموت هام فجأة في النرجسية . فلما طرق اذنها ذلك الخبر المشؤوم كان اشد وقعاً عليها من الصواعق فهلع قلبها ورتجفت اعضاؤها وصرخت واهاماه وسقطت مغشيا عليهـــا وحينئذٍ اقبل الخدم يتراكضون من هنا ومن هنا وداروا حوالها وقد اخذت احدى الخادمات فؤادًا من بين يديها واهتم

البعض يجلب الماء لافاقتها من غشيتها وبقي البعض وقوفاً لديها

ولما شاع خبر موت همام في المدينة ازدحمت الاقدام في بيتو حتى ضاق بهم المكان ومنهم من جاء ليحقق الخبر ويعلم ما اصاب باسمة من الحدثان ولما علم الخبر اليقين ذهب كثيرون لاحضار جنازة الميت مع من يحضرها من اهل النرجسية وبقيت جماعة مع باسمة يشاركونها بالبكاء وقد استعظموا تلك الرزيئة . وفيما هم كذلك واذا بالجنازة قد اقبلت وجثة همام تقلُّ على الالة الحدباء والناس يحفون بها من كل جانب بوجوهٍ صفراء وحينئذٍ علا البكاء وكثر النحيب وشمل الحزن والاسف البعيد والقريب ولما دخلوا بها الدار نهضت باسمة تنادي بالويل والثبور وتبكي بعلها بفؤاد منفطر وقلب مكسور وقد وهى عزمها لكبر المصاب فاغمي عليها مرات وكانت اذ تستفيق من غشيتها تردد بين المرة والمرة هذه الكلمات : آه واحسرتاه وامصيبتاه انا الغريبة المسكينة المنكودة الحظ ما نشأمي وانا صغيرة فبت يتيمة وقتل واويلاه ابي واخواي في حادثة من الحوادث المشؤومة فصرت لطيمة والآن والوعناه ماذا اقول آه ما انحس حظي

من لم يكن غير الشقا قسمتهُ
فلا يرى الا الشقا اين سرى

اواه يا عزيزي همام لقد كنت شفوقاً عليَّ كأب حنوناً كأم حين لم يكن لي على الارض من يهتم بامري سواك فلمَ تركتني الآن وعلى من تركت هذا الطفل الرضيع فؤاد الصغير. آه ما اعظم مصابي واشد اكتئابي

رماني الدهرُ بالارزاء حتى ... فؤادي في غشاء من نبالِ
فصرت اذا اصابتني سهامٌ ... تكسرت النصالُ على النصالِ

فلا تخدي يا لوعتي ولا تنشفي يا دمعتي. ثم لما وضع النعش في فسحة الدار وكشف عن الجثة الغطاء ظهر من تحتهِ وجه همام وهو شديد الاصفرار مطبق الجفنين لا يرى ولا يسمع فصرخت باسمة وا أسفاه عليك يا همام ماذا يصيب باسمة من بعدك ماذا يصيبها. جلست بجانب نعشهِ تندبهُ بهذه الابيات

(١) حبيبي كيف حتى غبت عني
انعرف ان لي احداً سواكا
اراك هجرتني هجراً طويلاً
وما عودتني من قبل ذاكا
عهدتك لا تطيق البعد عني
وتعصي في ودادي من نهاك

(١) في لبعض الشعراء تصرف فيها بعض التصرف

فكيف تغيرت تلك السجايا
ومن هذا الذي عني ثناكا
فيا من غاب عني وهو روحي
وكيف اطيق عن روحي انفكاكا
لقد حكمت بفرقتنا الليالي
ولم يك عن رضاي ولا رضاكا
وما فارقتني طوعًا ولكن
دهاك من المنية ما دهاكا
تركت فؤادك المسكين يبكي
صغيرًا ليس يدري ما دهاكا
فليتك لو بقيت لضعف حالي
ألا او ليت باسمة فداكا
يعزُّ عليَّ حين ادير عيني
أُفتش في مكانك لا اراكا
ولم ارَ في سواك ولا اراهُ
شمائلك الملاح ولا حلاكا
ختمت على ودادك في ضميري
وليس يزال مختومًا هناكا
لقد عجلت عليك يد المنايا
وما استوفيت حظك من صباكا

فوا اسفي لجسمك كيف يبلى
ويذهب بعد بهجتهِ سناكا
ارى الباكين فيك معي كثيراً
وليس كمن بكى من قد تباكى

ثم التفتت الى من حولها وقالت ناشدتكم الله ايها الناس لا تدعوني باسمة بل ادعوني باكية لان القدير قد ابكاني انظروا وتطلعوا ان كان حزنٌ مثل حزني فبكى لبكاها كل من حضر وتساقطت الدموع على الوجنات كالمطر . هذا وقد تمَّ لهمام مأتمٌ حافل لما له من الوجاهة عند القوم فساروا وراء جنازتهِ والاسف ملء القلوب ثم انهم بعد ما وضعوهُ طي الرمس رجعوا وهم يذكرون ما له من المآثر الحسان . ويقولون رحمة الله لقد كان لين العريكة انيس المحضر لطيف المعشر طلق اللسان طلق البنان منزهاً عن التكلم باعراض الناس الى غير ذلك من الاقوال . ثم بعد ذلك اخذوا يتحدثون عن سبب موتهِ الفجائي . فقال البعض انه مات من القولنج (مرض في القولون) . وقال آخرون ممَّن يدعون الطب لا بل مرض في القلب . وقال رجل من ارباب الاحكام ان لهمام عدواً ينازعهُ على بعض الاملاك فلا يبعد ان يكون قد دس السمّ في الطعام وارتأى واحدٌ من سخفاء العقول وقال وهو يؤكد ما ارتآهُ

ويتعوذ بالله ان هيام لشاب جميل وله امرأة بديعة ودار وسيعة وفرس سريعة فلذا اصيب لا محالة بالعين فادركه الين فاضحك قوله هذا الاكثرين وكان خيراً له لو بقي من الساكتين . واخذ البعض يتناجون سراً ويقولون همساً ان الفقيد لما ازدهاهُ امر اقبال قرينتو بالغ في الشراب فعجّل بهِ الى جوف تربتو وكان ذلك القول هو الصواب بعينو . وذلك لان هماماً لم يكن يتعاطى الشراب في البيت مع ميلو اليو ارضاء لخاطر زوجتو لانهُ كان يحبها كثيراً . وهي لم تكن تتاخة بذلك احتشاماً منها مع كرهها الشديد لكل مسكر فلما لحظ ذلك منها اختار ان يشرب بعيداً عنها وكان لما اوغل في الشراب ان المنية فاجأتهُ وهو لم يكن منها في حساب. ولما انقضت ايام العزاء على جاري العادة عولت باسمة على الاهتمام بامر ابنها فؤاد . فوقفت نفسها على تربيتو وارتأت ان تقتصد بالمعيشة على قدر طاقتها رغبةً في منفعتو فصرفت الخدم ولم تبقِ عندها سوى خادمة اسمها ريحانة لتقضي ما يتطلبهُ البيت من الاعمال وتهتمّ هي بشأن ابنها اذ تتولى بنفسها امر تربيتو في سائر الاحوال

وكانت على اثر فقد زوجها تجلس بجانب سرير ابنها فؤاد كاسفة البال حزينة الفؤاد متسربلة باثواب الحداد تلتفت تارةً اليو وتتأمل بوجهو اللطيف فيلوح لها عن بعد بارق الامل ان هذا الطفل يكون لها تعزية في مستقبل الاجل

وطوراً تتذكر حالتها الاولى مع زوجها المحبوب وما آل اليه امرها فتتغلب عليها المؤثرات ولذلك تتساقط عبراتهـــا وتتصاعد زفراتها وتنشد هذه الابيات

فقدت عزّي ونار الحزن تكويني
انا الحزينة مَن لي مَنْ يعزيني
فقدت عزّي وطيب العيش فارقني
والصبر ابعد عن قلبي من الصينِ
فقدت عزّي ومرّ الفقد ارّقني
ولا عزاء فليتَ الصبر يأتيني

ثم تلتفت الى طفلها وتقول

وانت يا طفل لا تدعو ابي ابداً
فقد تركت يتيماً ترك مغبونِ
تريد مني ابتساماً لا يطاوعني
قلبي عليه وثوب الحزن يكسوني
وكيف يمكنني رؤياك باسمةً
والغمُّ يقلقني والهمُّ يضنيني

ثم تتنهد حسرة وتقول

رجوت صفو الليالي واغتررت بها
فعاجلتني بسهمٍ ظلّ يبكيني
وألسَنَتْ بلسان الحال قائلةً
هيهات يرجى الصفا للماء والطينِ
وبعد ذلك تمسح دمعها وترفع الى السماء نظرها وتقول
فيا الهي اعن مسكينة لجأت
الى حماك ايا ملجا المساكينِ

وكان يسمع لصدى صوتها رنين يفتت الاكباد . ويذيب قلب الجماد . وبينما هي ذات ليلةٍ في غرفتها تبكي بجانب الغلام وتنوح ولا نوح الحمام وتردد تلك الابيات بفؤاد مجروح وقلب مقروح اذا بصوت جلبة في الزقاق وقهقهة خشنة يتبعها صوت غناء متقطع وبعد برهة وكان قد اظلم الظلام سمعت صوت قرعٍ شديد على الباب . فاجفلت وكفت عن البكاء وكفكفت دموعها واصغت . فزاد الطرق شدة . فاوجست خيفةً وهمت ان تدعو خادمتها فاذا بها قد وقفت لديها تقول . يا مولاتي صوت قرع على الباب فقالت باسمة اذهبي يا ريحانة واتيني بالخبر من يا ترى هذا الطارق . فاخذت ريحانة مصباحاً بيدها واسرعت نحو الباب وقبل ان تبتدىء كلمةً سمعت صوت جارةٍ لهم تقول بصوت ملتهف افتحي يا ريحانة

الفني حالاً فلما سمعت ريحانة صوت الجارة تنادي اسرعت الى الباب وفتحته واذا بالجارة وتكنى بام جبران قد دخلت وهي مضطربة الفؤاد مرتجفة ووجهها اصفر كالزعفران فانتزعت المصباح من يد ريحانة وانقلبت راجعة على الأثر

فوقفت ريحانة باهتة من جرى ذلك وفيما هي مترددة بين ان ترجع وتخبر مولاتها او ان تتبع الجارة لترى ما اصابها اذا بمولاتها قد وقفت في باب الغرفة تقول . ريحانة ما الخبر . ماذا جرى . اين المصباح . فقالت ريحانة لا اعلم يـا مولاتي . اما المصباح فقد اخذته جارتنا ام جبران من يدي بسرعة وذهبت . قالت باسمة اتبعيها حالاً واكشفي الخبر ثم عودي واعلميني فامتثلت ريحانة امر مولاتها وذهبت في الحال

الفصل الثالث

الشيخ المسكين

وكان السبب فيما جرى هو انه كان في طابق بيت باسمة الاسفل جارٌ خياط يسكنه بالاجرة يكنى بابي جبران ولما طعن في السن تاخرت حالته لانه لم يعد يمكنه ان يستعمل صناعته كثيراً لضعف بصره . وكان له ابنان قد وضعهما في صناعة الكنادر احدهما جبران وهو الاكبر كان يأخذ اجرته ريالين

في الاسبوع فيتلفها على المسكرات . والثاني اسمهُ انطون كانت اجرتهُ ريالاً فقط فياخذه ويأتي بهِ الى ابيهِ الشيخ العاجز فيضمهُ ذلك الشيخ الى الدخل القليل الذي يحصلهُ من صناعتهِ ليصرفهُ على عائلتهِ الا ان دخلها معاً كان لا يكفي لسد رمق تلك العائلة المسكينة

وكان جبران سكيراً متلافاً يقلق راحة العائلة بخصامهِ كل يوم وهو يطمع ان ياخذ فوق اجرتهِ التي يتلفها ما كان اخوهُ الاصغر وابوهُ الشيخ العاجز يحصلانهِ ليتلفهُ على سكره واذا اتفق انهُ لم ينل رغبتهُ ياخذ ما تصل اليهِ يده من امتعة البيت القليلة ويبيعهُ بابخس الاثمان ويذهب ويتلفهُ بمعاقرة بنت الحان ثم يعود للخصام . ولم يزل هذا دأبهُ غير مبالٍ بمراعاة خاطر جارتهم باسمة وهي في حالة الحداد مع انها كانت ترثي لحالهم وتترك لهم نحو نصف اجرة البيت تكرماً . ولكن كثرة ما كان يبديهِ جبران من الخصام لاهلهِ والقلق لها كاد يلجئها الى استخلاص البيت منهم وتركهم وشأنهم لولا شفقتها على ذلك الشيخ واحترامها لشيخوختهِ واعتبارها لاحاديثهِ ونوادرهِ اللطيفة التي كانت تسمعها منهُ في السهرات مدة حياة زوجها

وكان ذات يوم ان جبران لما تاقت نفسهُ الشهوانية الى شرب المسكر ولم يكن بيده شيء من الدراهم ولم يجد في البيت شيئاً يباع تسوَّر حائط دار بعض الجيران ليسرق ما تصل

اليو يده مهما كان فوجد حذاءه فتابطهُ وانقلب راجعًا وفي الغد ذهب بو وباعه ثم جاء بالثمن الى خمارة يقال لها خمارة ميكار. فلقي هناك زمرة من رفاقهِ فانخرط بينهم وجعل يشرب معهم حتى الغروب وحينئذٍ كانت قد اطاشتهم الخمرة فقاموا يمسك بعضهم بالبعض وذهبوا يتمايلون سكرًا. وتكلف جبران مشقة النهوض وحده ثم اقتفى اثرهم وبداء يتمايل وينطح الحيطان متوجهًا نحو البيت ليقضي ما عليهِ من فروض الخصام. وحدث يومئذٍ ان ابا جبران لما انتهى النهار وهو في دكانهِ ولم يكن قد ربح شيئًا في ذلك اليوم انهُ جاء نحو الغروب الى البيت يمشي متوكئًا على عصاه بخطوات العاجز الوهن. ولما اقترب من البيت جلس وهو متعب على حجر هناك ريثما ياخذ بعض الراحة وقد خشي ان يدخل البيت حالاً لئلا يصادف ابنهُ جبران سكران فيزيده انزعاجًا. وكان وهو جالس يتامل ماضي حياتهِ ويتذكر ما آل اليهِ امره من الضيقة وسوء الحال وما وصل اليهِ من مرارة العيش بسبب اعمال ابنهِ جبران انهُ سمع صوت باسمة تبكي فهيج لهُ البكا بكاها وفاضت عيناه بالدموع فانسكبت على وجنتيهِ المجعدتين من انثقال الهم والشيخوخة

وأتفق حينئذٍ ان زمرة اولئك السكارى مرّت من هناك وهم يضجون مترنحين فوقعت عين احدهم على ذلك الشيخ المسكين وهو يتنهد فحملق بهِ ولما راى دموعه تتساقط على

بجنبو وكز رفيقهُ بجنبو وقال وهو يشير باصبعو الى ذلك الشيخ

(لبك لبك شوف هالشيخ عمال يبكي . بخمنلك عاشق) فانتبه البقية الى هذا القول والتفت احدهم نحو الشيخ وقال (يا مسكين يا مسكين مفارق معشوقتو عمال يبكي والدموع بتسيل) فقهقه الجميع ضحكًا عليهِ حتى وقع بعضهم على بعض وبعضهم على الارض . ثم صرخ واحدٌ منهم بعد ما تمكنوا من النهوض وجعل يغني ذلك الغناء المتقطع ويقول (اسير المحبة ليه تهجروه   عاشق ومغرم بالله ارحموه) ولما اوسعوا الشيخ اهانةً بوقاحتهم مروا في طريقهم يترنحون سكرًا ويوسع بعضهم بعضًا سفاهةً وشتمًا وتلك الجلبة والقهقهة وذلك الغناء المتقطع هو ما سمعتهُ باسمة على ما سبقت الاشارة اليهِ فيما تقدم

اما الشيخ المسكين فقام يكفكف عبراتو منكسر الخاطر مما لحق بهِ من الاهانة وجعل يمشي نحو البيت متوكئًا على عصاه وقلبهُ يخفق جزعًا لئلا يصادف اهانةً اخرى من ابنو ايضًا. ولقد تحقق ما احتسب منهُ . فانهُ وهو داخل الى البيت راى ان ابنهُ جبران قد دخل قبلهُ وبدأ بالخصام مع امو يشتمها بكل قحة ويعنفها اشدَّ التعنيف وهو يقول "يا كيت وكيت خبيت عني الربع المجيدي قديش اعطيتك من الارباع بزماني" وكان وهو يقول هكذا يحرق باسنانو رافعًا يده عليها يريد ان يضربها . واما في

فكانت تعتذر له مذعورة باكية وتلتفت يمنة و يسرة تطلب مهرباً ولا تجد . وبينما هي كذلك وقف الشيخ في الباب وهو منحنٍ على عصاه فلما سمع ما سمع ورأى ما رأى تنهد تنهدًا عميقًا وقال لجبران بصوت كئيب وهو يرتجف من عظم الانفعال آه يا شقي ألا تزال تقلق راحتنا وتنكد عيشنا غضب الله يحلُّ عليك ثم قال في نفسه اما هو مغضوب عليه واي غضب اعظم من هذا — سكري حشاش — فالتفت اليه جبران بوجه قد ملأته الشراسة وعينين محمرّتين من السكر والغيظ وقال له بصوت خشن "وانت يا شيخ النحس تدعي عليَّ كمان" ثم تقدم نحوه رافعاً يده يريد ان يضربه فادار الشيخ كتفه واراد الهرب من وجهه ولكن قبل ان يتمكن الشيخ من ذلك دفعه جبران بعنف فلطم وجهه بقائمة الباب فتهشم انفه وتخدشت يدهُ وانصدعت ركبته وسقط مغشياً عليه . وفي الحال صرخت امرأته مولولة ظانةً انه قد مات واسرعت لتاتي بالمصباح ولكن لشدة اضطرابها سقط المصباح من يدها فانطفأ واظلم البيت فارتبكت ولم تعد تستطيع ان تجد علبة النفط لتشعله فركضت في الحال الى بيت باسمة تطلب ضوءًا وجعلت تقرع الباب بشدة وتنادي ريحانة الى ان فتحت لها الباب وانتزعت المصباح من يدها ورجعت مسرعة كما تقدم

تتمة خبر الشيخ

ثم ان ام جبران لما وصلت بالمصباح وهي مضطربة الفؤاد وجدت ان زوجها الشيخ ابو جبران كان لم يزل مطروحاً في الباب . فوضعت المصباح جانباً وجاءت بماء ورشت وجهه فاستفاق من غشيتهِ . وعند ذلك دخلت الخادمة ريحانة فساعدتها على انهاضهِ ونقلهِ واضجاعهِ على فراشهِ فنام وهو يئن متألماً . اما ذلك الشقي جبران فلما راى ما حل بابيهِ الشيخ انسل من البيت وانطلق هائماً على وجههِ فقادتهُ الطريق الى خمارة ميكار التي اعتاد الذهاب اليها وانزوى هنالك في احدى زواياها . وبعد انطلاقهِ بقليل جاء اخوه انطون وكان سهراناً في الدكان يشتغل باجتهاد لكي يكتسب بزيادة العمل ما بهِ يساعد اباهُ الشيخ على سد عوز تلك العائلة المسكينة . ولما دخل وراى اباه على تلك الحالة مطروحاً على الفراش يئن متنهداً وعلم السبب بكى بكاء مراً وعزم من ساعتهِ ان ينفصل عن اخيهِ ولا يدعه فيما بعد يدخل البيت ولو اقتضى الامر الى الالتجاء الى عدل الحكومة

وكانت باسمة بعد ما ارسلت خادمتهـــا وراء ام جبران لتكشف لها الخبر تنتظر بفروغ صبر رجوعها لتعلم ما اصاب الجيران ولما استبطأتها انشغل بالها من نحوه ولا سيما انهـــا كانت تعلم ما يبديه جبران من الخصام ويقترفه من الاهانة ضد والديه وهو سكران . وبينما هي غائصة بالافكار اذا بخادمتها قد جاءت وهي تقول ما تتفكر به بصوت مسموع (ما ارداك يا جبران – كيف عمل بهذا المسكين) ولما مثلت امام مولاتها طفقت تخبرها عما فعله ذلك الشقي بابيه الشيخ الى ان قالت لها (والشيخ هلق مطروح في الفرشة عمال يقول آخ يا جنبي آخ يا كتفي) فلما سمعت باسمة ذلك تكدرت جداً وحزنت على حالة ذلك الشيخ المسكين ثم تنهدت من اعماق قلبها وقالت في نفسها اواه كم يقاسي الوالدون من الاتعاب بتربية اولادهم على رجاء ان يكونوا لهم قرة عين في المستقبل فيا ما اصعب خيبة الامل اذا صاروا الى عكس ما ينتظرونه منهم وحينئذٍ التفتت الى ابنهـــا الذي حصرت فيه كل آمال تعزيتها في المستقبل فهجس في نفسها هاجس اقشعر له بدنها واضطرب فؤادها اذ بغتها كالبرق فكرٌ خفيٌّ من جهته فيما اذا نشأ واتبع الجهالة والتوى واعتاد شرب المسكر وغوى فماذا تكون حالتها حينئذ . ثم اجتهدت كثيراً لتطرد هذا الفكر عن عقلها ولا تجعل له مجالاً في خاطرها لانه ازعجها جداً . وباتت تلك الليلة وقد حولت فكرها نحو ذلك

الشيخ وفي نيتها ان تنزل في الغد لتفتقد حالهُ . وفي اليوم الثاني نهضت باكرًا واوصت الخادمة بالغلام ونزلت الى الطابق الاسفل لترى ما حلَّ بالشيخ

وفيما هي نازلة سمعت صوت بكاء وندب فاضطرب قلبها ولما دنت من الباب تطلعت واذا بام جبران وانطون جالسون بجانب فراش الشيخ يبكيان ويندبان فعلمت انهُ قد قضى نحبهُ وفارق الحياة . فدخلت وهي تتاسف وقد اغرورقت عيناها بالدموع ثم جلست على كرسي هناك تبكي معهما وقد ندمت اشد الندم كيف انها لم تزره في الليلة البارحة . وحينئذٍ حضر البعض من الجيران واشتركوا معهم بالاسف والبكاء وبعد ان لبثت باسمة برهة سالت ام جبران ان تخبرها عن فراقهِ ومتى كان وماذا قال عند ساعة موتهِ فتنهدت ام جبران ومسحت دموعها وطفقت تخبرها بلهجة محزنة ما ياتي : قالت ايتها السيدة بعد ان ذهبت خادمتكِ من هنا نام ابو جبران نومًا هادئًا فظهر لنا انهُ كان مرتاحًا ومع ذلك سهرت انا وانطون ابني وقتًا بجانب فراشهِ وما زلنا حتى غلب علينا النعاس فنمنا الى ما بعد نصف الليل وحينئذٍ انتبه المرحوم ابو جبران ودعاني لاجلسهُ ففعلت ولما جلس قال ابن انطون وكان انطون قد انتبه ايضًا فقال هانذا يا ابي . فقال ابوهُ تقدم اليَّ يا ابني فاقبلك . فتقدم انطون وقبل يد ابيهِ فقبلهُ ابوهُ وقال لهُ . الله يباركك

يا ابني ثم قال احفظ بوالدتك يا ابني . فابكانا بهذه الكلمات ولم نكن نعلم انه واسفاهُ يقاسي نزاع الموت ثم تنهد تنهداً عميقاً وقال ابن المسكين جبران . فاحترنا بما نجيبهُ وتعجبنا كيف انهُ يذكره بمجاسيات الحنو وهو الذي منذ ساعات قليلة القاه في تلك الحالة وهمّ ان يتكلم بعد ولا ندري ماذا كان يريد ان يقول . فادركتهُ نوبة من السعال اشتدت عليهِ حتى لم يعد يسعهُ معها استرجاع النفس فامال راسهُ على الوسادة وهدأ فتنهت لانهضهُ واذا هو واأسفاه جثة بلا روح . فصفقت كفاً على كف فقال انطون ماذا جرى يا امي ونهض فقلت اواه انظر ان اباك قد مات وجعلت ابكي انا واياه وحدنا الى ان حضرتِ ابنها السيدة ورأَتِنا على ما رأَيتِنا . فرقت باسمة لمصابها و بكت اشفاقاً عليها وحزناً على ذلك الشيخ المسكين . وعزمت في نفسها ان تبذل غاية جهدها بمساعدتها اذ كانت تلك العائلة غريبة في تلك المدينة . ثم اخذت تعزيها بكلمات طيبة وبعد ذلك قامت وذهبت الى بيتها وكتبت باهتمام الى رئيس جمعية مساعدة الفقراء الخواجه فضل الله تعلمهُ بواقعة حال تلك العائلة المسكينة ثم ارسلت الكتاب اليهِ في الحال بيد ريحانة خادمتها

وكان الخواجه فضل الله رجلاً من اصحاب النخوة والمروءة وصديقاً مخلصاً لزوجها . فلما قرأ الكتاب قام من ساعتهِ وارسل فدعا بقية اعضاء الجمعية فحضروا ولما اعلمهم بالخبر بادروا في

الحال الى بيت الشيخ المسكين وجهزوا كل ما يلزم لجنازته ودفنوه ثم ذهبوا به الى المقبرة وواروه التراب ورجعوا من هناك يعزون امرأته وقد اعطوها شيئاً من الدراهم اسعافاً لها. جازى الله فاعلي الخير خيراً . وبعد ساعة جاءت باسمة وكان انطون جالساً بجانب امه فاخذت تعزيها وقالت لام جبران وهي تحدثها : يا ام جبران ان الدنيا ملآنة من المصائب والهموم ومــا على الانسان في مثل هذه الاحوال الاّ التذرُّع بالصبر والتسليم لاحكام المولى سبحانه واشكري الله ان لكِ انطون هذا وهو شاب عاقل نشيط . فارجو ان يكون لكِ تعزية في مصيبتكِ هذه . ثم التفتت الى انطون وقالت له . ألا تكون كذلك لامك يا انطون ؟ فقال انطون ليقدرني الله على اتمام واجباتي له ولامي والجميع . حينئذٍ قالت لها ام جبران وعيناها مغرورقتان بالدموع

ايتها السيدة نعم ان الدنيا ملآنة من المصائب والهموم كما ذكرتِ وكما هي مصيبتي الآن بفراق المرحوم ابي جبران. ولكنني ارى ان مصيبة عادة السكر السيئة اشدها على اهل السكير واقوى عليهم من كل مصيبة كما هي عليَّ بسبب ابني الشقي جبران الذي كان السبب في موت ابيه . الله يساعدني

فقالت لها باسمة ليساعدك الرب وليعزِ قلبكِ ثم قامت وانصرفت الى بيتها وكانت تتردد عليها وتزورها المرَّة بعد

الاخرى مشتركة معها بالحزن متذكرة ما نابها من ذلك يوم وفاة زوجها المحبوب . واذ اختبرت ما لعبارات الكتاب المقدس من القوّة في تعزية الحزانى والمصابين كانت تقرا لها فيهِ كثيراً فتعزيها وتعزى هي ايضاً . اما تأثرها مما فعل جبران بابيهِ فقد زادها حرصاً على الاهتمام بامر ابنها خشية ان يصاد بحبائل الخداع في مستقبلهِ لكنها قالت في نفسها ان ابني لا يكون ابداً شقياً كجبران ولربما كان جبران كذلك لسبب اهمال تربيتهِ صغيراً اما انا فابذل جهدي بتربية فؤاد وادربهُ على سنن الواجبات بكل قدرتي . واخذت من ذلك الحين تعتني بهِ اشد الاعتناء مهتمة بنظافتهِ واكلهِ وشربهِ ونومهِ ويقظتهِ منتبهة الى كل حركةٍ من حركاتهِ . ولم تكن تملُّ من حملهِ ولا كانت تتركه الاّ لعمل تعملهُ لاجلهِ وكان اذا اصابهُ ادنى انحراف بصحتهِ يحرمها الرقاد فتتمشى بهِ ليلاً ذهاباً واياباً وتسهر اذا نام بجانب فراشهِ ولا تبالي بالتعب حرصاً على راحتهِ وغاية ما تتمنى ان تعدّهُ ليكون من افضل رجال عصره . وما زال ذلك دابها وهو يتدرّج في اطوار الحياة الى ان ترعرع وقد بذلت قصارى جهدها بتاسيسهِ على المبادىء التي تؤهلهُ لكل ارتقاء وكانت تعلمهُ بنفسها في البيت كلما يستطيع ادراكه وما زالت الى ان جعلتهُ اهلاً لاكتساب المعارف في اعلى مدرسة

الفصل الرابع

التباعد

ولنرجع هنا الى ما كان من امر جبران فانهُ لما انسل من البيت وانطلق الى خمارة ميكار وانزوى هناك في احدى زواياها كما تقدم الكلام نام في احدى تلك الزوايا فراشهُ اديم الارض وغطاؤُه سقف الرواق وجعل يغط وهو سكران في تلك الليلة التي كان ابوه فيها يقاسي نزاع الموت . وفي الصباح لما انتبه من نومهِ وقد صحا من سكرتهِ نهض وهو يفرك عينيهِ فتذكر ما اقترفهُ ضد ابيهِ فندم على ما فعل وتافف وشتم المسكر وشاربيهِ وعزم ان يرجع الى البيت من ساعتهِ ليستسمح من والديهِ على ما كان من سفاهتهِ لكنهُ خوفاً من ان يلتقي باخيهِ انطون فيخاصمهُ على ما بدا منهُ أخَّر ذلك الى العصر وحينئذٍ اقترض من بعض معارفهِ دريهمات قليلة واشترى بها علبة بوبا وفرشاة ليحصل على ما بهِ يقتات . ولما صار العصر جاء الى البيت وفيما هو يقترب من الباب سمع صوت امهِ وهي تبكي لفقد زوجها فارتجف قلبهُ ووقف مبهوتاً . اما امهُ فتطلعت ولما راتهُ علمت انهُ قد صحا من سكرتهِ

وجاء يطلب السماح على عادته فنظرت اليه وقالت له لِمَ لم تأت يا جبران لتودع اباك قبل موته وقد سأل عنك فقال وهو يضطرب اضطراباً أوَ مات ابي ولم يكن قد علم انه قد مات . فقالت اي نعم يا جبران مات وحاكي من لم في القبور عامات وانت الذي قتلته بيدك يا جبران فبدأ جبران يشهق ويبكي ثم تقدم الى امه وجعل يقبل يدها ويقول لها سامحيني يا امي سامحيني آه يا ليتني كنت حصلت على السماح من ابي وكان يبكي وهو يقول يا ليتني لم اولد كان خيراً لي فقالت امه ياليت وكان خيراً للآخرين ايضاً . فتنهد جبران حينئذٍ وقال ألا تسامحينني الآن يا امي اني ما عدت اسكر ابداً . قالت له امه كم مرة يا جبران وعدت هذا الوعد واشهدت الله عليك والسماء والارض واقسمت الاقسام الكثيرة ولكنك لم تثبت على وعدك بل حنثت باقسامك وما زلت حتى قتلت اباك بيدك فكيف يمكنني ان اصدقك واثق بقولك بعد . لا يصدق القول حتى يشهد العمل . فقال جبران نعم يا امي حتى يشهد العمل واني من اليوم وراءٍ (يريد من الآن فصاعداً) ما عدت اذوق شيئاً من المسكرات نعم والموت اسبق

قالت امه ليتني اشاهد ذلك وليتك تصدق بما تقول ثم قالت له ولكن اخاك لم بعد يريد ان يتفق معك فما العمل

فقال " ولا انا اريد ان اثقل عليه اذا كان بحسب ان

وجودي معهُ ثقلة . انا اشتغل لحالي واقدر ان اكفي عشرة معي ولا بد ما يعرف انطون من منا اللي بيخسر. انسمحين لي بالفرشة" قالت امهُ "فرشتك لك خذها شو فيه غيرها" فقال لا شيء ثم قام وحزم فراشهُ برسة عتيقة منقطعة موصلة ووضعها على كتفهِ وودع امهُ وذهب

وبعد ذلك جاء انطون فاخبرتهُ امهُ بامر جبران وما دار بينها وبينهُ من الحديث . فسرَّ انطون بانفصالهِ عنهُ على اهون سبب وقال لعل الله يهديهِ فيصطلح ولكن ما دامت عينا جبران في ظهره وراسهُ في بطنهِ ويتقاوى وهو ضعيف ويدعي بما ليس فيهِ فلا امل بتقدمهِ الى احسن وباليتهُ يتقدم فانني لا اريد لهُ الاَّ الخير . ومن ذلك الحين شرع انطون يشتغل باجتهاد لا يعيقهُ شيءٌ عن العمل وكان قد قلَّ عليهِ المصروف اذ لم يبقَ معهُ في البيت سوى والدتهِ وصار يتقدم باتقان الصنعة يوماً بعد يوم وشهراً بعد شهر واجرتهُ تزيد حتى بلغت في الاسبوع خمسة ريالات ثم لم يمضِ على ذلك الاَّ سنين قليلة حتى استقل بالعمل وفتح دكاناً على خاصتهِ وقد اشتهر بالصدق والامانة فكثر المشتغلون عنده ونجح نجاحاً عظيماً ولا سيما انهُ قد اتخذ على نفسهِ عهداً شريفاً انهُ لا يذوق مسكراً على الاطلاق وما زال يرتقي في سلم النجاح الى ان صار ياتي بالمواد التي تلزم لصناعتهِ من مصادرها على اسمهِ ويتاجر بها وقد بلغ منزلة عليا بين التجار .

ولما راى ان دخلهُ من التجارة يزداد من وقت الى آخر اقتصر عليها وما زال كذلك الى ان صار ذا ثروة وافرة وصار لهُ عملاء كثيرون في الجهات ثم بنى دارًا مشيدة الاركان وزينها بالاثاث الفاخر ثم انتقل اليها ولبس هو والبس امهُ من افخر اللباس فتعزَّت ام جبران الاَّ انها لم تكن سالمة من الكدر وتنغص العيش اذ كانت تفتكر بحالة جبران السيئة . وكان بعد ذلك ان انطون اقترن بفتاة حسناء ذات لطف وبهاء واتخذ لهُ خدمًا منهم من يقضي المصالح البيتية ومنهم من يذهب معهُ الى المخزن وقد اتسعت اعمالهُ التجارية ووفرت الثروة لديهِ وحلت بركات الله عليهِ

اما جبران فلما ذهب وهو حامل فراشهُ لم يجد محلاً يضعهُ فيهِ سوى خمارة ميكار لانهُ لم يعد احد يقبلهُ صانعًا في دكانهِ ومن هناك اخذ يدور من مكان الى مكان مستمرًّا على مسح الاحذية في المخازن والساحات وكانت عيناه توصوصان بالارجل حتى اذا وجد حذاء وسخًا ينادي "بويا انكليز بتسمع هذا يا معلمي" وحين يمسي المساء يأوي الى تلك الخمارة ويشرب بما حصلهُ مع زمرتهِ ومن هم على شاكلتهِ وقد دعتهُ سلطة العادة الى نقض توبتهِ وما زال كذلك حتى صارت ثيابهُ رثة مخرَّقة برقع الخرق فيتسع عليهِ ولبس من يرثي لحالهِ او يلتفت اليهِ

وحدث مرَّة وهو جالس صباح يوم في تلك الخمارة انهُ مرَّ

من هناك رجل لُقب بعائف (كان سابقاً من اكابر السكارى وقد انفق كثيراً في سبيل بنت الحان في تلك الخمارة نفسها ثم ترك الكاس وعاف كل مسكر) فناداه الخمار ميكار وقال له ايها الشاب ما بالك لا تاتي كعادتك وتشرب من خمرةٍ

"يخفي الزجاجة لونها فكانها في الكأس قائمة بغير اناء"

هلمّ واشربها سائغة مرقرقة في هذا الصباح البارد . فوقف الشاب وقال يا مولاي اني لا استطيع الشرب لسبب هذه الكتلة القاسية في جنبي (قال هذا وقد وضع يده على جنبه يريه الكتلة) ثم قال انها لكتلة قاسية جداً يا سيدي

قال ميكار (متيقناً ان تلك الكتلة دمل) تلك حال من ترك هذه الخمارة بعد ما اعتاد رشف المسكر فيها فارجع الى رشف بنت الحان تبرأ سريعاً منها . بل ان شربت زجاجة واحدة كل يوم زالت وان بقيت ايها الجاهل تقليها وتمقتها وتكره ان تشرف بحانتها كبرت كتلتك هذه ولا تلبث ان تخرج لك كتلة ثانية مثلها في جنبك الآخر . فاغرب الشاب في الضحك وقال اصبت ايها الخمار وبالحق نطقت واخرج تلك الكتلة واذا بها كيس مملوء ذهباً فرفعه امام عيني الخمار وجبران باهت ينظر وقال هذه كتلتي فقد صدقت بقولك اني ان رجعت الى الخمرة

زالت واقي‌ان ظللت اجرها كبرت وبرح ان اصاب بكتلة اخرى مثلها في جنبي الآخر فالسلام عليك ايها الخمار اني بعونة‌الله وحوله اظل ناجيًا من اشراكك مجهدًا بتكبير كتلتي هذه وتحصيل كتل اخرى غيرها مثلها ان شاء الله

هذا ما جرى بين ميكار وعائف وجبران يرى ويسمع . فلما انتهى بينهما الحديث وذهب الشاب عائف لشأنو نهض جبران لاستلام فرشتهِ وعلبتهِ وتابطها حزينًا ومضى وهو يتافف من قبح عادتهِ ويتنهد من سوء حالهِ وهو يشتهي ان يكون كعائف ويحصل على كتلة مثل كتلتهِ . وبينما هو ذاهب في احد الشوارع راى عن بعد اخاه انطون آتيًا الى المخزن وهو لابس لباسًا من الطراز الاعلى متبوعًا باحد خدمهِ والتفت انطون فرآه ايضًا ولما لمح كل منهما الآخر حاد عن طريقهِ اما جبران فخجل لرثاثة ثوبهِ من مقابلة اخيهِ واما انطون فخجل بهِ لانهُ ولو كان على تلك الحال فهو ابن امهِ وابيهِ

ولما خلا جبران بنفسهِ اخذ يفتكر بحالة ذلهِ وعظم تعسهِ ووفرة نحسهِ ولما راى نفسهُ كذلك وجه اللوم على العناية الآ انهُ ارتاى اخيرًا ان يطلب خدمة عند احد الاغنياء لعلهُ يهتدي بملازمتهِ الى طرق الاثراء فقصد رجلاً غنيًا يكنى بابي كمونة فادخلهُ ذاك حالاً في خدمتهِ وقرَّبهُ اليهِ اذ علم ان باسمهِ كانت جارتهُ . وربما علم اللبيب من ذلك ما كان في نيتهِ

وكان هذا الرجل ابو كمونة ممن اسرعوا بتحصيل الغنى لكن ليس بالحق بل بالخداع ولم يكن مستقيماً في سلوكهِ لا لدى الله ولا عند البشر. ومع ذلك طمع اعتماداً على فرط غناهُ ان يقترن بباسمة بعد ترملها اذ كانت لم تزل فتاة غضة. فارسل اليها يد جبران رسالة بها يطلبها عروساً لهُ وكانت تلك الرسالة مملوءة من عبارات التجميل والتبجيل والتشوق. فلما اطلعت باسمة عليها وفهمت ما تضمنتهُ اشاحت بوجهها عن تلك الرسالة والقتها جانباً ثم قالت وكانت قد ارسلت ابنها في ذاك الحين الى المدرسة وهي متأثرة من فراقهِ. "كلاً. اني لست ارضى بحبيبي الاوّل بدلاً وهبني رضيت افيسمح لي قلبي المتعلق بفؤاد ان اقبل ما يضعف مزيد اهتمامي بهِ. كلاً. ثم كلاً. اليكم عني ايها الطلاب فانكم انتم في وادٍ وانا في واد". ثم طوت الرسالة وارجعتها كما هي الى مرسلها بيد رسولهِ. ولما رجع جبران بالرسالة الى مولاه علمَ مولاهُ من ارجاعها ان باسمة قد رفضت طلبهُ فضاق صدره وعيل صبره واذ ظن ان ليس ما يقشع سحابة همهِ او يفرج كربة غمهِ الا زجاجة من المدام دعا بجبران وارسلهُ بطلبها. فانطلق جبران بالحال يعدو كالظليم الى خمارة ميكار وهو يقول في نفسهِ (الف غرض مثل هالغرض) ولما وصل الى هناك وجد الزمرة مصطفين يتعاطون الشراب فرحبوا بهِ ثم عاتبوهُ على القطيعة وقالوا لهُ ألا تصرف معنا هذه

الليلة فها نحن كلنا حاضرون وانت تقدر ان تاتي الينا بالف حيلة وكان قد اخبرهم عما جاء لاجاو فقال لميكار املأ لي زجاجة من احسن ما عندك من المسكرات واحضرها في الحال وخذ ثمنها ما شئت من هذا الريال . فاحضرها ميكار وناوله اياهـا وهو يقول لا تحرمنا انسك الليلة فاننا لم نناهدك من مدة طويلة فما كان من جبران الا انه تناولها بيمناه ورفعها الى فمه سانداً طربوشه بيسراه وجعل يجرع منها بكل اشتياق حتى اتى على نصفها ثم ملأها بدلاً مما شرب ماء وبعد ذلك انطلق بها الى مولاه ولما سلمه اياها استأذنه بالذهاب الى زيارة صديق له فاذن له ثم دخل ابو كمونة بالزجاجة الى مخدعه وجعل يشرب حتى غاب عن رشده فنام نوماً ثقيلاً لا يعي على شيء من بعده

الفصل الخامس

الزمرة

اما جبران فرجع الى زمرته كما وعد فقاموا له على الاقدام وكان بيد هذا كاس يتلألأ وبيد ذاك طاس يلمع " ان الطيور

على اشكالها تقع " فاجلسه رئيسهم بجانبو وسر كل بصاحبو وكان عددهم خمسة وهو سادسهم وقد كنّوا انفسهم ولقبوها بغير اسمائهم الحقيقية . او وضعت ذلك لهم الناس للسخرية . وهذه هي القابهم وكنياتهم :

الاول . ابو حنبش وهو الرئيس . وكان ربع القامة قصير الرقبة لا يزال محمرّ العينين من شدة تاثير السكر فيو

الثاني شمرَخ . وهو طويل القامة والرقبة معاً وعيناه اشبه بعيني ابي حنبش وكان يتعرض بكلامو للجدال الديني

الثالث . القناقيّ . وهو كبير الانف احدب الظهر صغير العينين محمرّهما وكان يشتغل احياناً بصنعة الحياكة ولكن بما انه كان يرهن ما يحيكهُ للناس ويشرب بو كفّ الناس عن الشغل عنده

الرابع . ابو كتيلة . وهو شيخ كسلان يشرب على كيس الخلان وينشد بكلامو بعض الاشعار

الخامس . ابو دبوس . وهو شرس الاخلاق يشتم لادنى سبب ويحب الخصام مع اي كان غُلِب او غلب

السادس . جبران . لقب بقطّع وصّل . لانه كان ينقطع عن الشرب مدة ثم يعود اليه وينقض التوبة

ولما انتظم مجلسهم بمجيء جبران ملأ ابو حنبش الكاس والتفت الى جبران وقال سرك يا قطع وصّل وردها الى فمو

واخذ بمص شفتيه وفضلة شاربيه . ثم ملأها ثانية وقدمها الى جبران فاخذها جبران من يده باسماً والتفت الى ابي حشيش وقال "سرّك يا بو حشيش" ونظر الى البقية وقال "سر محبتكم يا شباب" فصرخوا بصوت واحد "الف صحة وهنا" ثم ملأها وقدّمها الى القنانيّ فاخذها وقال وهو يتامل بها "بخ بخ شوفوا حلاها طوّل الله عماركم" وقلبها الى فمه فقالوا "صحة". ثم قال هذه الليلة مباركة ان شاء ميكار فقال ميكار اهلاً وسهلاً بكم كل ساعة وقال على حدة همساً "ما دامت الدراهم في اكياسكم" فسمعهُ ابو حشيش وقال اسمع يا ميكار

كان لي مالٌ وكيسٌ   قبل تهيامي وسكري
فسكبت المال طاساً   وصبغت الكيس خمري

فقال ميكار "بارك الله بهمتك يا شيخ الشباب . معيشتي على اصحاب الكرم والجود امثالك" ثم تناول شمرخ الكاس وقال "الله الله ما احلى هالليلة وما احلى هالقدح . صدقت يا ميكار

اني اشحُ بدرهم متصدقاً
واجود في قدحٍ بما ملكت يدي

فضحك ابو دبوس وقال "لكنك ما بتملك شيء يا معتر" ثم التفت الى ابو كتيلة بجانبه وقال "ما يملك الاّ الهوا

مثلك " فتنهد ابو كنيلة وقال " رايت الذين لا يفهمون فذبت مات الكاس الى هنا " فناولوه اياها فانشد

ما العيش الأ في جنون الصبا
فان تولى فجنون المدام
كاس اذا ما الشيخ والى بها
خمسا تردى برداء الغلام

ثم شربها وانشد ايضاً

اذا حانت وفاتي فادفنوني بكرمٍ واجعلوا زقًا وسادي
وابريقًا الى جنبي وطاسًا يروي هامتي ويكون زادي

ثم تناول ابو دبوس الكاس وملأها وقال " هذا مربوط على بيت عنابا يا كتيلة " فصرخ واضعًا يده على خده

" يا ابي يا ابي الخ "

ثم قال ابو دبوس بتعجب " يا اخوان كيف ان الناس البخلاء يتدفق عليهم المال مثل السيل ونحن الكرما الظرفا ما يملك واحدنا بكيسو فلس تايصرفو بليلة انس مثل هيدي "

فقال ابو كتيلة

" تموت الاسد في الغابات جوعًا
ولحم الضان تأكله الكلاب "

الله بيطعم اللحم للي ما لو سنان"
فتناول الكاس شمرخ وقال وهو بشرب "لكنهم مساكين محرومين طعمة هالكاس لو يعرفوها كانوا يتركوا كل شيء ويتعلقوا بذيالها ولو في شرب عرق بالسماء ما كان يروح لها غيرنا"

فقال ابو كتيلة

"سجد الساجدون لله حقاً وجعلنا سجودنا للقناني"

ولما لعبت الخمرة برؤوسهم قال ابو دبوس "اتركونا من هالاشعار ودبروا لنا امر يكون فيو لنا اصلاح الحال لنشرب الليل والنهار بلا انفصال"

فقال جبران المسمى بقطع وصل وكان قد دار فعل الخمرة براسو "اشرب يا ابو دبوس اشرب عندي بحول الله شيء يكفيكم للقيامة" فقهقه الكل ضحكاً الا ابو دبوس لانه كان قد همس باذنو كلاماً ولذلك قال "لا تضحكوا يا اخوان صدق قطع وصل وحياة الكاس" ثم تقدم الى ابي حشيش واسرّ اليو كلاماً فالتفت ابو حشيش الى جبران وقال له "منجربها الليلة يا قطع وصل" فاحنى جبران راسه عبارة عن الجواب بالايجاب وكان السر في ذلك ان جبران اخبر ابا دبوس عن غنى سيده الزائد وقال ان عنده صندوقاً مملوءاً

من اللبرات وهو الليلة يسكر وينام ولا يعي فهلّق نسرق ذاك الصندوق وانا ادبر الامر بكل سهولة فيكون لجميعنا كيس واحد . ولما علم الجميع ذاك اجمع رأيهم على الذهاب لسرقة مال مولى جبران تلك الليلة وحينئذٍ اشار ابو كنيلة بتخفيف الشرب لكي تستطيع ارجلهم ان تحملهم فلم يقبل ابو دبوس بهذا الشور بل شرب حتى انتهى . ولما قارب الليل نصفهُ سأل ابو حشيش "قديش بتظنوا الساعة هلق" فقال قطع وصل "هنه" مشيرًا الى الكاس "لا تسمح لنا بنقل الساعات لكن غدًا ان شاء الله كل واحدٍ منا يقدر ان ينقل ساعة ثمينة بسلسلة غليظة من ذهب"

وكان مهكار نائمًا على مصطبة في الحانة فلما سأل ابو حشيش عن الساعة انتبه واذ كان يريد انصرافهم عنهُ قال "الساعة هلق اربعطعش" فقال واحد منهم "هلق نصف الليل بالتمام . قوموا نروح" فقاموا وذهبوا وجبران يقودهم الى بيت سيدهِ . وفيما هم ذاهبون راى ابو كتيلة التنافيّ يعرج بمشيهِ فقال لهُ "ولك اي متى صرت اعرج يا قنافيّ"

قال القنافيّ "كنت مرّة سكران فركض عليّ كلب حتى يعضني . شلت الخنجر وضربتو لكن ياحيف الكلب هرب واجري اكلت الضربة ولولا جرّاح الخستخانة كنت هلق بفرد اجر"

وما زالوا حتى وصلوا الى بيت ابي كمونة وكان ذلك البيت بجانب بستان يقال له بستان النزهة وله شبابيك تشرف عليه . فذهب ثلاثة من جهة البستان ودخل جبران بابي دبوس والقنافيّ الى داخل الدار ومشوا بكل هدو الى المحل المعهود فدفع جبران الباب بلطف واذا بو قد فتح لان ابا كمونة كان قد غفل عن قفله من داخل اذ لم يسمح له السكران ينتبه اليه ولما دخل جبران وكانت الغرفة مظلمة اشعل عودًا من النفط فراى مولاه نائمًا نومًا ثقيلاً ففرح بهذا التوفيق وللحال دعا ارفاقهم ابـا حشيش والاثنين الباقيين لمساعدتهم . ثم احنى ابو دبوس ظهره لانه كان حمالاً ووضعوا عليه صندوق المال واخرجوه بكل هدوّ ولم ينتبه ابو كمونة عليهم . وبعد ما خرجوا من الدار وبعدوا عنها بعض خطوات اراد ابو دبوس ان يذهب بالصندوق الى جهة لم يكن يريد الذهاب اليهـا ابو حشيش فعارضه وآل بينهما الامر الى الخصام والشتم والوكز واللكم وانقسم الباقون فكان اثنان مع ابي حشيش واثنان مع ابي دبوس ولما اشتد النزاع طرح ابو دبوس الصندوق عن ظهره واستلّ مدية من جنبه وطعن بها ابا حشيش في صدره فالقاه على الارض مضرجًا بدمه . وقد اثخن الباقون بعضهم بعضًا بالجراح ولحق جبران منها اوفر نصيب ولما علت الضجة بينهم انتبه الناس وقلقوا من ذلك اشد القلق وحينئذٍ اقبل

البوليس مع جماعة من رجال الشرط الى ذلك المكان فلما راى هولاء الضابطة مقبلة نحوهم اركنوا الى الفرار فتتبعهم البوليس مع بعض الضابطـــة وابقى البعض بجانب الصندوق والمطروح يحرسونهما

وكان ابو كمونة قد انتبه ايضاً وسمع الضجة فاضطرب قلبهُ واشعل المصباح ليرى ما امامهُ ولما استنار البيت بنور المصباح التفت فلم يرَ صندوق المال مكانهُ فطارت نفسهُ شعاعاً وعلم انهُ قد سرِق فاندفع الى الخارج بكل لهفة مفتكراً ان تلك الضجة في الخارج هي بسبب صندوقهِ وحالما وصل الى باب الدار نظر واذا بعض من الضابطة بجانب الصندوق وعلى بعد بعض خطوات منهُ شخص مطروح على الارض مضرَّج بدمهِ فامتقع لونهُ اصفراراً وحينئذٍ رجع البوليس بمن معهُ من الشرط قابضين على ثلاثة من اولئك الاشقياء ومن جملتهم جبران فلما راى جبران سيده وقد ظهر له ان الصندوق سرِق بخيانة منهُ احتدم غيظاً وقال لهُ ويلك يا جبران ما هذا العمل. "هذا جزاء مجير ام عامر"

فاراد جبران ان يختلق كذبة يبرّر بها نفسهُ لكنهُ لم يستطيع اذ قد انعقد لسانهُ عن الكلام لما اعتراهُ من الرعدة والخوف وحينئذٍ اوثقهُ البوليس مع رفيقيهِ ابي كنيلة والقنافيّ وساقهم امامهُ الى دار الحكومة . اما ابو حشيش فحُمل وهو في

حالة النزع وأُخذ معهم . اما ابو دبوس وشمرخ ففرّا . وحينما وصلت الضابطة بالمقبوض عليهم وضعت السلاسل برقابهم والقيود بارجلهم وطرحوا في السجن الى حين المحاكمة فلما استقرّوا يو يخشخشون بتلك السلاسل نظر ابو كتيلة الى جبران وقال له وهو يشير الى السلسلة التي برقبتو — هيدي يا قطع ووصل السلسلة الذهبية اللي وعدتنا ووعدت حالك فيها مباركة ان شاء الله . صدقت بما وعدت وانجزت الوعد باقرب وقت — فقال جبران وهو واقف بجانب شباك السجن وكان النهار قد طلع — اسكت يا ابو كتيلة ما افضى بالك مانك شايف عمال ياخذوا جثة ابو حشيش . . مسكين مات . . فقال القنافيّ — كان خيراً لنا لو متنا كلنا ولا نبقى بها لحبس نقاسي العذاب — هنيّا لبو دبوس وشمرخ ما اشطرهم خلصوا من خروم الشبك — فقال ابو كتيلة — ابشر يا قنافيّ عن قريب يشرفوا . الضابطة عمال تفتش عليهم . وبينا هم يتكلمون اذا بابي دبوس وشمرخ قد دخلا وهما يجرّان السلاسل ويجلان بالقيود فقال ابو كتلة — اهلاً وسهلاً بابو دبوس شيخ الشباب — فقال ابو دبوس — فخر الرجال سلاسل وقيود فاجابه ابو كتيلة — خذ مجدك . كل شيء على خاطرك — فطرح مع شمرخ في السجن بفاسانهم ذاك الغنى

ثم لما جرت محاكمتهم ثبتت عليهم الجريمة بدون عناء وصدر

الحكم بحبسهم مدة خمس عشرة سنة في السجن يقاسون العذاب الهون

وكان لما سمعت ام جبران وانطون بما اصاب جبران تكدرا جدًا لا سيما امهُ فانها اخذت تذرف الدموع اشفاقًا عليهِ لسوء حالهِ وجعلت منذ ذلك الوقت ترسل له الى السجن زادًا ودراهم بكل فرصة . وبقي جبران في السجن الى ان انقضى عليهِ نحو ثلثي المدة وحينئذٍ صدر امر ملكي مرحمةً بالعفو عن المجرمين الذين انتهت مدتهم فاطلق كثيرون ومن جملتهم جبران

ولما أُطلق جبران من سجنهِ جاء الى بيت اخيهِ انطون ليشكره ويشكر والدتهُ على اعتنائهما بهِ . ولما وصل الى البيت ودخل الى داخل الدار ظنتهُ الخدم متسولاً لما كان عليهِ من سمات الضعف والهزال وما رأوهُ بهِ من رثاثة الثياب وقذارتها . وكان انطون وامهُ وامرأتهُ على المائدة وبنوهُ كغروس الزيتون من حولهِ وكلهم لابسون الفخر اللباس والخدم واقفون مستعدون لاتمام امره فخجل جبران ان يدخل الى حيث هم فجاء الى المطبخ وجلس هناك . ولما سمعت امهُ بمجيئهِ امرت بعض الخدم ان يذهب ويغسلهُ في حمام الدار وارسلت له بدلة من ثياب اخيهِ . وبعد ما اغتسل ولبس تلك الثياب دخل عليهم وقبل اولاً يد امهِ فقبلتهُ ثم سلم على اخيهِ وعلى عائلتهِ وجلس وبعد ما جلسوا برهةً

صامتين قال له انطون كيف رأيت حالك بعد هذا يا جبران اتعود ايضاً الى ما كنت عليه فاطرق جبران خجلاً ثم رفع رأسهُ وقال يا اخي علمني الدهر ان اترك الوعد الكاذب ومن الآن ما عدت ألمس الكاس ولا اذوق المسكر ابداً فصدّقت امهُ ذلك الوعد وتكلمت مع انطون بشأنهِ فاعطاهُ انطون اطاعةً لها دراهم ليشتري بدلة ثياب جديدة وفكر بان يعين له عملاً في المخزن لعله يتقدم الى احسن . ولما قبض جبران الدراهم بيده ذهب بها الى السوق ليشتري تلك البدلة . وفيما هو ذاهب اخذ يفتكر بنفسهِ ويتأمل بطول مدة حبسهِ كيف انه قضى في السجن تلك المدة الطويلـــة تحيط بهِ الاكدار من كل جانب وهو لا يعرف فيها غير المتاعب وقد وعد انهُ لا يذوق ولا قطرة من المدام كل الايام فرأى نفسهُ في كمدٍ لا مزيد عليهِ فقال في نفسهِ — ما عليَّ يا ترى لو وفرت من قيمة الثياب ما بهِ اودع الخمرة هذه المرّة ولا ادع احداً يعلم بذلك اذ يستر مـــا افعلهُ ظلام الليل وهكذا فعل جبران كما نوى فانهُ وفر من قيمة البدلة ريالاً وذهب بهِ الى خمارة بعيدة واخذ يشرب هناك حتى خيم الظلام واذ كان ضعيفاً اثر فيهِ السكر اشد التأثير حتى لم يستطع النهوض الاَّ بالجهد الجهيد . ثم اخذ يمشي بكل عناء ليطلب له مبيتاً في احد الخانات وكان بين كل خطوة وخطوة يسكع ويقع ثم يعود ويتكلف القيام وهو قد تضعضع ولما لم

يستطع الوصول الى حيث قصد سقط في احد الشوارع ونام كالجذع الممدد واذا بركبة قد اقبلت تجري في ذلك الشارع وهي في اشد سرعتها فمرّ دولابها محكماً على رقبتهِ فاندقت فجحظت عيناه وانفجر الدم من اذنيهِ ومن انفهِ ومن شدقيهِ واندلق لسانهُ من بين اسنانهِ فصار يخبط بيديهِ ورجليهِ ولم يستطع الصراخ فمرّت ولم تشعر بهِ ومات جبران اشنع ميتة وذهبت نفسهُ الى حيث القت رحلها ام قشعمٍ وهوت ورائحة السكر تفوح منها الى ادنى دركات جهنم

وكان لما بلغ الخبر الى اخيهِ انطون انهُ بادر في الحال الى حيث كان ملقى ولما رآه على تلك الحالة التي تقشعر منها الابدان ورائحة المسكر تفوح منهُ الى بعيد والقيء قد بلل ثوبهُ الجديد تنهد وزاد بهِ القهر وعلم ان ما اصابهُ كان بسبب السكر حينئذٍ نقلهُ الى بيتهِ وهناك اخذت امهُ تبكي عليهِ وتندب سوء حظهِ . وفي اليوم الثاني اجتمع الى هناك كثيرون اعتباراً لاخيهِ انطون وبعد ئذٍ ساروا بجنازتهِ وقد ضاقت بهم الدرب فكانت الجنازة حافلة والميت . . . ولما وصلوا بهِ الى المقبرة وضعوه في حفرة هناك وهالوا عليهِ التراب وهكذا قضى جبران غير مأسوف عليهِ ليقف في يوم الحساب

ولما سمعت باسمة بذلك ذهبت لتأخذ بخاطر انطون وامهِ ولما رجعت الى بيتها وكانت تتفكر فيما حدث لجبران

قالت في نفسها — اواه ما اعظم سلطة العادة على الانسان انهُ لا يستطيع التخلص منها ولو اراد ما لم يسكب نفسهُ بالصلاة امام الله ويسألهُ العون والامداد فكم ماتت الجهلة بجهلها ولم تقبل النصيحة من اهلها

الفصل السادس

باسمة وفؤاد

وكانت افكار باسمة في ذلك الوقت قد اتجهت الى جهة ابنها فؤاد فاخذت تستعد لاستقبالهِ اذ كانت قد انتهت مدتهُ في المدرسة وقد حصل فيها ما يكفي لحلوهِ فكانت تنتظر رجوعهُ اليها وهي تعد الساعات . وبينما هي تعد نفسها برؤياهُ وتستعد للقاهُ واذا بهِ قد اقبل ووجههُ يطفح سروراً فاسرعت اليهِ بلهفة المشتاق وضمتهُ الى صدرها وقبلتهُ كثيراً ودموع الفرح تجري على وجنتيها وكان فؤاد قد بلغ الشباب وظهرت عليهِ ملامح ابيهِ فنسيت ما قاستهُ لاجلهِ من الاتعاب وطاب قلبها

ولما علم انطون بمجيء فؤاد من المدرسة جاء الى بيت باسمة يقدم لها التهنئة بهِ وقال اني ارجو ان تشاهدي نتيجة اتعابك

بتقدمهِ فشكرتهُ على ما ابداهُ من لطيف الكلام وشكرت الله الذي عزاها بان رات ابنها شاباً جميلاً متعلماً بعد ما صبرت على تربيتهِ كل تلك الايام

وبعد ايام اخذت باسمة تعمل فكرتها لايجاد عمل يعملهُ فؤاد خوفاً من انهُ اذا طال عليهِ الوقت وهو بلا عمل يعاشر محبي البطالة والكسل واهتمت ان تجد شخصاً مناسباً ليتمرَّن فؤاد عنده على الاعمال فتكون هي مرتاحة البال

اما فؤاد فلما راى العالم مرسحاً ترقص فيهِ الاماني وتحوم حولهُ بشائر التهاني زينت لهُ الآمال انهُ يكون في مستقبلهِ من اعاظم الرجال . ثم اخذ ينتبه الى احوال الناس من حيث جريهم وراء اسباب المعاش فراى وهو يتامل ان كل فريق منهم سواءٌ كانوا من ارباب الامارة او التجارة او الزراعة او الصناعة بين مرتقٍ ومنحطٍ او واقف بين بينٍ في الحط وكلهم في سباق ولحاق بين اصطباح واغتباق وظهر لهُ ان النجاح الغالب في السعيدية موكول للتجارة فعزم ان يتبع خطتها ويحط في محطتها الا انهُ كان يعوزه الراسمال وهو ما لا بد منهُ في تلك الاشغال واذ كان يفتكر بنفسهِ في ذلك خطر لهُ ان يبيع املاكه في النرجسية ويجعل قيمتها راسمالاً في ما اراد ظاناً ان امهُ لا تعارضهُ بل ترى بذلك منهُ علامة الاجتهاد . فجاء ذات يوم وجلس بجانبها وقال وهو يخاطبها

يا امي اني خرجت من المدرسة وانا الآن بلا عمل ولا اريد ان اكون من صف اصحاب البطالة والكسل والشبان اترابي يتسابقون في ميدان التقدم والنجاح فاسمحي ان اجول انا ايضاً في هذا الميدان ولا تردّيني في ما اطلبهُ منكِ الآن

فقالت باسمة وكانت مصغية الى كلامهِ وقد سرّ قلبها بو لما راتهُ من حسن اهتمامهِ ماذا تريد يا بنيَّ وقرَّة عيني

قال اريد ان تسمحي ببيع املاكنا في النرجسية لتكون قيمتها راسمالاً بيدي للتجارة فاني اميل اليها ولا اعتمد بامور نجاحي الاَّ عليها

فقالت وقد قابلت ذلك الطلب بالتبسم اللطيف لا يا بنيَّ لم ترَ الصواب ولا أرى لك ان تجري في باديء الامر وحدك في اعمال تقتضي حذاقة وانت الآن غفل غير متدرب في الاشغال فاخشى ان تكون عاقبة ذلك الفشل فتندم حيث لا ينفع الندم والراي عندي ان تلازم اولاً بعض التجار تتمرن بالاعمال وتحصل شيئاً من تعب كفك فتجد بذلك لذة اكثر مما لو حصلت على مال كثير بدون تعب واذا رايتك ناجحاً اومل حينئذ ان لا يكون بيع ما تريد محظوراً عليك واعلم يا بنيَّ انهُ لقد اسعد في الحظ بعد سهري عليك الليالي الطوال اني رايتك شاباً يحب الجري في الاعمال ولا شك انك ان دأبت في العمل متكلاً على الله تنجح لا محالة باذن الله

فلما سمع فؤاد كلام امهِ وجمَ وسكت على غير ارتضاء متفكراً ان امهُ غير واثقة بكفاءتهِ وهو يحسب نفسهُ اكفى من كثيرين من طبقتهِ ثم قال لها وهو يريد ان يعرف ما انطوى عليهِ فكرها من تريدين يا امي ان أتلمس هذه الخدمة واحصل على تلك النعمة وهوذا كثير من الشبان يدورون في الاسواق بلا عمل يلتمسون تلك الخدمة ولا يجدونها

فشعرت باسمة ان فؤاداً قد دعا تلك الخدمة نعمة تهكماً. لانهُ كان يحب الحرية لما في طبعهِ من الحدة والميل الى الاستقلال. فقالت لهُ لا تحسب يا بنيَّ ان الخدمة حطة بالشرف فان الناس اجمع يخدم بعضهم بعضاً في سائر الاعمال والحرَف واما من جهة الشخص الذي اشرت اليهِ فلا تتعب بذاك نفسك فانا اجده لك واهديك اليهِ

فقال فؤاد وهو يريد ان يمتحن استطاعتها و يعرف ما تصل اليهِ مكنتها دبري ماشئتِ فاني لا اخالف لكِ امراً ثم قام وذهب وهو يقول في نفسهِ سراً ان وجدت ما يوافقني قبلت والاَّ عدت من حيث اقبلت

ولما ذهب فؤاد اخذت باسمة تعمل فكرتها لايجاد شخص يناسب ان يكون فؤاد عنده وخشيت من انهُ اذا طال عليهِ الوقت وهو بلا عمل يعتاد معاشرة محبي البطالة والكسل الذين دأبهم التربص في الحانات ومحلات اللهو واللذات وبينا

في مهتمة بذلك كل الاهتمام اذ بلغها ان قد جاء الخواجا كامل بعائلتو من الديار المصرية قصد ان يقيم في السعدية وقد نقل اليها اعماله التجارية . ولا يغرب عن القارئ ان الخواجا كامل هو احد اقاربها وهو الذي اتى بها وهي صغيرة الى تلك المدينة ففرحت جدًا بمجيئو وطاب قلبهـــا وبعد وصوله بوقت قليل ذهبت لتسلم عليو وتعرف بعائلتو اذ هي اقرب الناس اليو . وكان كامل قد تزوج في الاسكندرية ولم يولد له سوى ابنة وحيدة اسمها مريم . فلما سلمت عليو وعلى قرينتو واستأنست بها اتت حينئذٍ مريم ابنتهُ وسلمت عليها فقبلتها باسمة وقد احبتها واعجبها لطف منظرها وحسن حركتها ونوت في قلبها ان تتخذها عروسًا لفؤاد وتجعلها كنتها لكنها ابقت ذلك طي الكتمان حتى يكشفهُ الزمان

وكان لما تبادلت بينهما الزيارات عدّة مرات ان باسمة اخبرت الخواجه كامل عن اهتمامها بامر فؤاد وكيف انها مهتمة بتدبير شغل له . ثم طلبت اليو ان يتنازل بقبولو عندهُ في المخزن وقالت ذلك بكل رقة وقد تهيج قلبها بذكر ما مضى فقالت وانت يا كامل لا سواك قريب لي هنا فلا اشك انهُ يهمك امري فاجعل فؤادًا ابنًا لك والقِ عليو نظرك لاراحة فكري

فاجابها الخواجا كامل وقال وهو يطيب خاطرها وقد تحركت عواطفهُ رقة وحنت جوارحه تأثيرًا . ايتها العزيزة طيبي نفسًا وقري عينًا فاني منذ وجهت فكري للاقامة في هذه المدينة

قصدت ان ابذل جهدي فيما يؤول لراحتك . ذلك ما توجبهُ عليَّ حقوق القرابة . واني سابذل جهدي ايضاً بكل ما يؤول لتقدم ابنكِ العزيز فؤاد الذي يكون عندي بمثابة ولدي ومن الآن يكون شريكي في المخزن . فشكرتهُ باسمة على ما ابداه من اللطف والاهتمام . ثم ان كاملاً دعا بفؤاد فجاء اليهِ وسلم بكل حشمة عليهِ . ولما جلس التفت اليهِ الخواجه كامل وقال ايها العزيز فؤاد لقد اعلمتني والدتك بما ابديتهُ لها من حسن قصدك واهتمامك للعمل طلباً للنجاح وحفظاً لمقامك بين اقرانك فهذا الفكر ايها العزيز من اشرف افكار الشبان ولاسيما اذا كان مبنيا على تقوى الله وقد حملني ذلك ان اتوسم فيك ما يبشر بحسن الاستقبال بل ما يحقق بك الامال . والآن اكد يا عزيزي انني من يحب نجاحك ويرغب في كل ما يؤول لارتياحك فعليك من الآن ان تلازم مخزني وانا اعين لك خمس ليرات في الشهر وان رايت منك ما يجعلني ان اعتمد عليك ازيد ذلك لك حتى اجعلك معي شريكاً في المخزن فاذهب غداً والله الموفق الى كل ما هو حسن . فشكره فؤاد على ما ابداهُ من اللطف نحوهُ . وحينئذٍ نهض الخواجه كامل وذهب وبقي فؤاد وامهُ يتحدثان بلطفهِ وحبهِ المخلص . ثم ان فؤاداً ذهب في الغد الى المخزن واخذ في عملهِ . ولما انتهى النهار عاد الى البيت عند المساء مسرور القلب فكان ذلك داعياً لفرط سرور امهِ . وهكذا كان يفعل من

يوم الى يوم مجتهدًا في اعمالهِ ومتممًا اياها بحذق ونشاط الامر الذي جعل الخواجه كامل ان يعتمد عليهِ في اهم الاشغال

الفصل السابع

السفر والسائغة المرقرقة

كان في نية الخواجه كامل ان يوجه فؤادًا الى عملائهِ في الجهات الشرقية ترويجًا لمصالحهِ التجارية واذ كان مجتمعًا احدى الليالي مع الخواجه انطون في بيت باسمة اخبر فؤادًا عما في نفسهِ واتفق انهُ كان في نية الخواجه انطون السفر الى تلك الجهات ايضًا فسرَّ فؤاد بذلك الخبر وعزم ان يسافر غير مبالٍ باتعاب السفر . اما باسمة فلما سمعت ذلك الكلام قلقت من جهة خوفًا على فؤاد من مزعجات السفر لكنها سرَّت من جهة أُخرى ان ابنها يتمرن في الاسفار ولذلك لم تعارض في امر سفره ولاسيما انهُ سيكون برفق الخواجه انطون

ولما جاء يوم المعين ودّعها ونزل الى البحر هو والخواجه انطون فركبا معاً سفينة مصرية سريعة الجري تدعى الرحمانية وفيما هما يتمشيان على ظهرها ويتسامران مع بحريتها وقد اعجبتهما سرعة خواطرهم بالجواب واستحسنا منهم تفخيم الجيم في الخطاب اذا بشخص ملقىً في ناحية على ظهر السفينة والقيء يندفق من فيه فظنه فؤاد مأخوذاً بالدوار وما كان ذلك الا من تأثير المسكر فيه واذ كان ذلك الرجل في مكان لا حاجز له سقط من على ظهر السفينة الى البحر واذ لم يتمكن البحرية من انتشاله غرق وكان ذاك اقل جزاء لغريق المسكرات . فتأثر انطون من ذلك المنظر وتذكر ما فعله المسكر باخيه فذهب بفؤاد الى جهة اخرى طلباً لما يسلي فكره ويلهيه

وكانت تلك الليلة مقمرة الا ان السماء مشوبة بسحاب منبسط فوق الجبال كالشباك والبدر يظهر من خلالها كناظر يطل من شباك واشعته على البحر تنبسط وتنقبض على عجل فيرى البحر كالمرآة في كف الاشلّ وترى الجبال كالشيوخ معممة بالثلوج والبحر تحت عيونها وذلك السحاب المنتشر كأنه دخان غلايينها وهي كأنهـــا تبتسم ضحكاً من تكرار اقتحام امواج البحر لمرافئها واندحارها منكسرة تزبد غيظاً لعدم تشفيها وبينما هما يسرحان الطرف في تلك المناظر واذا بالرياح قد عصفت فأحدثت في البحر الهياج والاهوال وجعلت الامواج تلاطم السفينة

وهي كالجبال فاخذ الخوف من الركاب كل مأخذ واعتراهم
الدوار ولاسيما فؤاد لعدم تعوده الابحار . لذلك نزل بوانطون
الى مرقده ونام كل منهما وهو لا يدري ما يكون في غده . اما
السفينة فظلت تمخر في اللجج وتخترق جبال الامواج ولاحرج وما
زالت حتى دنت من مدينة الجنائن عند مطلع الفجر وحينئذٍ
سكنت الريح وسكنت ضوضاء الآلات وهمد غضب البحر
فبرزت الركاب على ظهر السفينة كالنجوم وظهر كذلك فؤاد
والخواجا انطون ثم اقبلت القوارب لنقل المسافرين فنزلا الى
البرّ وقصدا محطة المركبات ليذهبا الى المدينة فنزلا في مركبة
وكانت على اهبة السفر وما استقرّ بهما الجلوس حتى اندفعت وهي
غاية في الاتقان ومرّت كالنسيم بين تلك الجنان يجرّها فرسان
مطهمان وفي دون ساعة وصلا الى المدينة فاذا هي من احسن
المدائن لما فيها من كثرة الجنائن فلم يعودا ينكران على اهلها مقالاتهم
بمدح فضلها . ولما نزلا من العربة سارا الى فندق في بستان نزهٍ
فوضعا اثقالهما في محل اخذاه فيه لمبيتهما ثم ذهبا الى الاسواق وجالا
فيها من مكان الى مكان ينظران ما يحتوي هذا المخزن وتلك
الدكان وبعدما شاهدا ما فيها من الترتيب ونظرا المعجب والعجيب
عادا الى الفندق ليبيتا فيه ليلتهما وبينما هما يستعدان للمنام سمعا في
الاسفل رنة اقداح ثم ما لبث ان وضع كل منهما رأسه على الوسادة
حتى دوى المكان بالصياح وعلت اصوات الصراخ فنهضا وانها

الى الماشي ووقفا هناك ينظران ما الخبر واذا بجمهور من السكارى يتخاصمون ويضرب بعضهم بعضاً بالاقداح والصحون وكان بينهم واحدٌ يقول "آه يا عيني دخلكم عيني طارت طارت عيني" وآخر يقول "يا سني يا سني" وآخر يقول يا راسي وآخر يا ظهري وحينئذٍ حضر البوليس ففرّ من فرّ منهم تحت ستر الليل وساقوا من قبضوا عليهم الى السجن والويل فلما راى انطون ما كان ناوه وقال لفؤاد ان قلبي يضطرب جداً حينما ارى واسمع عن السكر والسكران كما لو رايت او سمعت عن جهنم والشيطان تعال وضع يدك على قلبي فوضع فؤاد يده على قلب انطون فشعر انه شديد الاضطراب ثم قال له انطون كذا اصابني في السفينة عند ما شاهدت ذاك الذي بات طعاماً للاسماك فما اشدّ اضرار المسكرات بل هو للبشر من اعظم الآفات

فقال فؤاد وهل يصيب اذاها الاّ الجهلة الارذال

فقال انطون ما اقل العقال

ولما سكن الحال دخلا الى مبيتهما وناما ليلتهما وفي الصباح نهضا وتوجها الى بيت المركبات وركبا هناك العربة وسارا قاصدين مدينة الازهار فسارت تطوي بهما ارضاً بعد ارض وتقطع جسراً بعد جسر الى ان وصلا اليها عند العصر . فنزلا وقد استقبلهما عميل الخواجه كامل ورحب بهما ثم دعاهما الى

منزلهِ فذهبا معهُ اتماماً لرغبتهِ وفيما هما سائران معهُ في السوق وقف بوجه الخواجه انطون شخص رث الثياب غليظ الرقبة وقال لهُ والشرر يتطاير من عينيهِ قف لا تبرح من هنا حتى تدفع الجزية انا عنتر بن شداد فارس الحرب والجلاد فدفعهُ انطون بيدهِ جانباً حاسباً اياهُ من المجانين واراد ان يمشي في طريقهِ فاذا بذلك الشخص قد رجع اليهِ وتمسك بثوبهِ بكلتا يديهِ وقال لا تنقل القدم ما لم تدفع الجزية اقلهُ ربع درهم فضحك انطون من كلامهِ ثم مد يدهُ الى جيبهِ واعطاهُ درهماً بجملتهِ وهو يريد ان يتخلص من تحتهِ فاخذهُ ذاك وذهب وقد ظن انهُ قد ملك كيساً من الذهب

حينئذٍ اخبر العميل الخواجه انطون وفؤاداً بامر هذا الرجل وقال لهما ان اباهُ كان يملك مبلغاً كبيراً وداراً وسيعة لكن بعد وفاتهِ اتلفهُ ابنهُ هذا على المسكرات وقد باع الدار ايضاً واخذ يعيش هذه العيشة الدنية عبرةً لمن يعتبر من اهل البرية

وما زالوا يتحدثون وهم سائرون حتى وصلوا الى بيت العميل فاولم لهما واحسن ضيافتهما وباتا تلك الليلة عندهُ

ثم في الصباح التالي رحلا قاصدين مدينة النزهات ولما وصلا اليها اجتمعا بتجارها فاحسنوا ملتقاهما واحلوهما محل الانس والبشاشة وبعد مخابرات طويلة بشان الاعمال التجارية قصد التجار ان يعملوا لهما وليمة حافلة في بستان نزهٍ فجهزوا كل ما يلزم

لذلك ثم دعوهما وقد نقلوا المعدات وجاءوا بها الى روضة غناء في ذلك البستان مستصحبين معهم موسيقياً يضرب على العود ذا صوت رخيم فلما انتظم عندهم وجلسوا على بساط الربيع المدبج بالازهار حول ماء جارٍ يترقرق كاللجين على درٍّ من الحصباء اخرجوا قبل تجهيز الطعام اواني الشراب وقد اجلسوا فؤاداً وانطون في ارفع مكان . ثم اخذ الساقي يطوف عليهم بالكاس واوّل ما قدّمه الى المغني ليطربه فامسكه بيده وانشد

ساقي المدامة ان الوقت قد ذهبا
قم فاسقنيها سلافاً رقيقاً ذهبا

وبينما هو يغني اسرّ انطون الى فؤاد انه لا يستطيع ان يشترك معهم في الشرب وقال اني قد آليت على نفسي ان لا اذوق مسكراً قط وكان احب اليّ لو لم احضر في هذا المحضر لكن الاجتماع مقدّر

فقال فؤاد وكان بجانبه رجل يسمى الخواجا يونس وهو ممن لا يشربون المسكرات ايضاً اني والخواجا يونس على رايك وان كان جلوسنا في حلقة القوم ينكد سرورهم فهلم ننفرد الى تلك الجهة عنهم فنكون نحن بحريتنا ونترك لهم حريتهم فاستأذنوا ونهضوا للجلوس في الجهة المقابلة فلم يعارضهم احدٌ باختيار المكان

اذ لكل ان يختار حيث يشاء ولما علموا ان القصد بانفرادهم عدم اشتراكهم معهم في الشرب ساءهم الامر فاوعز واحدٌ الى صحبهِ ان يقدم كل واحدٍ منهم عند وصول الكاس اليهِ وصفًا يليق بهِ قبل شربهِ . قال ذاك بصوت مسموع قصدًا ليظهر ان الذين لا يشاركونهم في الشرب قد خسروا . فاذعنت فئة لرايهِ

اما انطون فلما سمع ما اعانوا قال للخواجه يونس وكان شاعرًا لبيبًا هل لك ان تساعدني على معاكسة وصفهم ونكون نحن بصفنا وهم بصفهم

فقال نعم واستعدا لذلك . وهكذا جلست فرقة مقابل فرقة واخذ كلٌ يستعدُّ ليبين ان فرقتهُ في المحنة

حينئذٍ قدَّم الساقي كاسًا الى واحد من الفئة الشاربة وقال صفها قبل ان تشرب وناولهُ اياها فقال

هات من التي تطلق اللسان وتشجع الجبان

فالتفت انطون الى صاحبهِ وقد تذكر ما اصاب اخاه من بنت الحان فقال

لا بل من التي تعقد اللسان او تطلقهُ من بين الاسنان

ثم قدم الكاس الى آخر فقال

هات من التي تؤلف شمل البعيدين وتزرع المحبة بين المختلفين

فقال يونس

لا بل من التي تفرّق شمل القريبين وتزرع البغضاء بين المحبين

ثم قدّم الى آخر فقال

هات من التي تنظم الاخاء وتزيد السخاء

فقال انطون لا بل من التي تأتي بالشقاء وتزيد جهد البلاء

ثم الى آخر فقال

هات من التي تعطف قلب القاسي وتستدرُّ الجود من البخيل وتجعله يواسي

فقال يونس

لا بل من التي تزيد قساوة القاسي وتتلف مال الانسان اسرافًا فلا يستطيع ان يواسي

ثم قدّم الى آخر فقال

هات من التي تجلي الهموم وتنفي الغموم وتورث الشيم وتعلم الكرَم

فقال انطون

لا بل من التي تجلب الهموم وتأتي بالغموم وتورث السقم وتدس السم في الدسم

ثم قدّم الى آخر فقال

هات من التي تجذب الصبابة والغزَل وتشفي الفؤاد من

العقل

فقال يونس

لا بل من التي تأتي بالصرع والسكتة والشلل والحمى والرعشة والفالج وسائر العلل

وزاد انطون فقال

وفيها ضياع العقل والدين والادب واتلاف الصيت والصحة والمال والذهب

ثم قدّم اخيراً الى الاخير فقال

هات من التي تكسب العيون من الفتور احوراراً وتكسو الخدود من التورد احمراراً

فقال يونس

لا بل من التي تكسب العيون من الجمود ازمهراراً وتكسو الخدود من الدوار اصفراراً

هذا ما جرى وفؤاد يسمع ويرى ويقابل بين الوصفين وينظر الى كل من الفئتين وفي عزمه ان لا يحيد عن وصايا امه الا انه لما ساغت الخمرة في الكاس مرقرقة ولعبت الحميا برؤوس تلك الفئة الشاربة نهض واحدٌ منهم وبيده كأس تتلألأ قاصداً ان يجتاز بها الفئة الثانية ليقدمها الى فؤاد ويجعله من حزبه واذ كان لم يزل فؤاد فتى وفيه حمية الشباب خشي يونس من ان ينقاد الى رايهم فنظر اليه وقال

في هذه الكأس الهلاك فلا تذق

حلب العصير صديد اهل جهنم

عكست لظى لألائها من نارها

وحبابها نفث الحباب الارقم

ثم نظر الى انطون وقال لا تنظر الى الكاس اذا احمرَّت فانها اخيرًا تلسع كالافعوان . اما الذي كان بيده الكاس فاجتاز ووقف بها امام فؤاد وقدَّمها بيمناهُ واضعًا يسراهُ على صدرهِ وقال اني لا اطمع ان يشاركنا الخواجا انطون والخواجا يونس بهذا الحظ بسبب تقدمهما في العمر وفقدهما حمية الشباب ولكني لا اظن الخواجه فؤاد يرجعني مخجولاً ولا يشرب على الاقل هذه الكأس فقط

فقال فؤاد اني لست معتادًا على الشرب فارجوك ان لا تكلفني بها بزعجني ولك عليَّ الفضل فرجع ذلك بكاسهِ من حيث اتى فلعبت الحمية بشخص آخر كان بجانبهِ وحسب انهُ قد وقعت الغلبة على فئتهِ فملأ الكاس وجاء بها الى فؤاد عازمًا في نفسهِ انهُ لا يرجع ما لم يسقهِ اياها فقدمها وهو يقول ارجو فؤادي ان لا يكسر بخاطري ويشرب ولو جرعة من التي لا يستعفي عن شربها راهب في ديرهِ اكرامًا لخاطري وان شرب القليل منها لا يضرُّ احدًا لا دينًا ولا ادبًا وما زال يهزأ بمن يعاقب شربها حتى احمرَّ وجه فؤاد خجلاً فلم يقوَ على تجربة ذلك

المزه وكانت نفسهُ قد استعدت لقبول شرب قليل من الكاس وهو يقول في نفسهِ كل الناس يشربون قليلاً فلا باس اذا جاريت اصحابي بشرب قليل منها فرفع يده ومدها الى الكاس وناولهُ اياها وقال

اشرب هنيئًا سيدي فلك الهنا
في شربها قد زالت الاتراحُ

وحينئذٍ ردها فوَّاد الى فمهِ فرنت الاقداح طربًا وصرخت الفئة الشاربة (كبيبا) ولما شرب فوَّاد الكاس الاولى وجد في شربها بعض الصعوبة . ثم ان الذي قدم لهُ الكاس اولاً حسب نفسهُ مكسورًا فملأ كاسًا من جديد وجاء بها ثانيةً الى فوَّاد وقال لهُ هل اني عندك دون رفيقي حتى ارجعتني مخجولاً فالآن بحق محبتي لك لا ترجعني كذلك . فشرب فوَّاد ايضًا وهكذا تناولهُ الكاس فشرب . فلم يشعر الاَّ وقد خدرَ بدنهُ ودب النعاس في اجفانهِ وشعرَ بسرور في نفسهِ . وكان قد حضر الطعام فاكلوا وانفض مجلسهم وهم مسرورون وتفرَّق كل الى منزلهِ وجاء فوَّاد وانطون مع العميل الى بيتهِ وباتا تلك الليلة على اهبة الرجوع الى السعدية ولم يرد انطون حينئذٍ ان يفاجئهُ بالعتاب بل قصد ان يتكلم معهُ وهما راجعان في طريقهما حين يكون قد ذهب من فوَّاد تاثير الشراب

ولما كان الغد خفّا للسفر فودعا وانطلقا وفي نفس فؤاد ان يخفي عن امه ذكر تلك الوليمة واما انطون فلم يقصر عن تقديم النصائح المؤثرة مبيناً له ما للمسكرات من الاضرار . وما زالا سائرين حتى وصلا الى السعدية

الفصل الثامن

العشرة الردية تفسد الاخلاق السليمة

وكانت باسمة على مثالي الجمر لبعد فؤاد تعدّ الساعات وقد حسبتها شهوراً والايام وقد حسبتها دهوراً واذ كانت تنتظر رجوعهُ بفروغ صبر كانت تسأل الخواجا كامل عن ذلك مراراً . وفي المرّة الاخيرة التي واجهته فيها بهذا الشان سكن خاطرها واخبرها ان فؤاداً غداً يكون في السعدية . وان غداً لناظرهِ قريب . فاطمأنت بالها الاّ انهُ لما جاء الغد لم يحضر

فؤاد في الوقت المنتظر قلقت فكرتها وهجمت عليها شكوك
مزعجة جعلتها مضطربة البال كل ذلك النهار واحرمتها الرقاد
في الليل . وفي الصباح التالي مضت تريد الذهاب الى الخواجا
كامل لتسالهُ عن سبب تلك العاقة واذا بالباب قد قرع
فلم تصبر حتى تفتح الخادمة بل اسرعت بنفسها اليهِ وفتحتهُ في
الحال واذا فؤاد في الباب فلما رآها قبَّل يديها فضمتهُ الى صدرها
وقبلتهُ كثيرًا ودموع الفرح تسيل على وجنتيها ثم دخلت بهِ الى
الداخل وقلبها يطفح سرورًا وبعد ما عملت كل ما يلزم لراحتهِ
جلست بجانبهِ وجعلت تسالهُ عما كان من سفرتهِ فاخذ يحدثها
بما رأى لكنهُ لم يذكر شيئًا من امر سكرتهِ وبعد ذلك حضر
الى هناك الخواجا كامل وامرأتهُ سلمى ليهنئا باسمة بقدومهِ
فقابلهما بمزيد الاحترام وسلم عليهما احسن السلام ثم اخبر الخواجا
كامل عن سرور العملاء بمعاملتهِ وما قالوه في شان امانتهِ
واعتبار صداقتهِ . حينئذٍ قدم لهُ الصرَّ الذي احضره منهم فاستلمهُ
كامل وقد سرَّ بفؤاد فشكره على ما ابداهُ من النشاط والاجتهاد
وكان لما ذهب الخواجا كامل وامرأتهُ سلمى ان باسمة
قالت لفؤاد كيف ترى الخواجا كامل معك يا ابني قال يا امي
انهُ اشفق من أب عليَّ فقالت ما قولك بامرأتهِ سلمى قال انها
من النساء الفاضلات اللطيفات فقالت افتريد اذًا ان تتخذ
ابنتها مريم عروسًا لك فاضطرب قلب فؤاد سرورًا لهذا الخبر

لانهُ كان يحب الفتاة وقال لها يا امي لا ارى لي انسب منها فان شئتِ كلّي لي كاملاً بذلك فسرّت باسمة بما قال وقالت وانا اخطبها لك ان شاء الله عن قريب فقرّ عيناً ايها الحبيب

وفي تلك الاثناء اتفق انهُ كان عرسٌ لبعض الخاصة فدُعيت اليهِ باسمة وفؤَاد ودُعي ايضاً الخواجا كامل وعائلتهُ . ولما كان الوقت المعين لحضور المدعوين الى بيت العريس اجتمع الرجال في القاعة الكبرى والنساء في القاعة الاخرى بجانبها وكانت كلتا القاعتين غاية في الاتقان والزينة فدخل الخواجا كامل وفؤَاد الى قاعة الرجال ودخلت امرأَتهُ وابنتهُ مريم مع باسمة الى قاعة النساء ولما غصّت كلتا القاعتين بالمجتمعين والمجتمعات اخذت آلات الموسيقى تعزف على انواعها ودار الكاس والطاس بانواع الشراب على الحاضرين فقدِم الكاس للخواجا كامل ليشرب فأَبى ولكنهُ لكثرة الالحاح التزم ان يشرب كاساً واحدة لاغير. ثم قدم لفؤَاد فاستعفى ولم يرد ان يشرب وكان بجانبهِ شاب اسمهُ زاهي تلوح عليهِ علامات الطيـــاشة فتقرّب اليهِ بالحديث فجعل يؤانسهُ ثم دعاهُ ليذهبا ويشربا معاً فلبي فؤَاد طلبهُ ولما خلا بهما المكان جعل زاهي يحسّن لفؤَاد شرب قليل من المدام في ذلك المقام وما زال حتى اقنعهُ فشرب معهُ . ولمـــا فعلت بهما الخمرة فعلهـــا نهضا واذ كان زاهي من اهل بيت العريس امسكهُ بيدهِ ودخل بهِ قاعة النساء فاستُقبلا بسرور

ووُضعت لهما كرسيان فجلسا فيهما وقد شخصت اليها الابصار وكانت باسمة جالسة في الصدر وعلى جانبها الايمن مريم ابنة الخواجا كامل وعلى الجانب الآخر امرأته سلمى وكان بيد فؤاد طاقة من الزهر متقنة الترتيب فبعد ما جلس قليلاً نهض وبيده تلك الطاقة ومشى بها الى حيث كانت مريم جالسة وقدَّمها لها

فتناولت مريم تلك الطاقة من يده بكل حشمة وقد صبغت حمرة الخجل وجنتيها فاستلفت ذلك الابصار اليه واليها اما باسمة فتعجبت من عمله لانها لم تعهد به مثل هذه الجرأة من قبل وهي لم تكن تعلم ان الكاس قد غيرت حاله . ثم جاء هو وزاهي بعد ذلك الى قاعة الرجال وكان قد تجرأ فؤاد ومال الى الشرب فصار زاهي يقدّم الكاس له فيشرب وقد ظهرت على وجهه لوائح السرور والطرب ولما انتهت السهرة تفرّق الجمع وذهب كلٌّ الى بيته وذهبت ايضًا باسمة وفؤاد معها وقد ظهر عليه تأثير الشراب فلما رأته نشوانًا تكدرت في نفسها ولكنها لم تبدِ حينئذ عتابًا بل اجلت الكلام معه الى الغد . اما فؤاد فنام تلك الليلة ثملاً وهو لم يبدل ثيابه وباتت باسمة قلقة البال من نحوه وما صدّقت ان اصبح الصباح حتى دعته اليها فلما مثل امامها قالت له بلطف يا فؤاد كيف رأيت ليلتك البارحة

فقال على ما رأيت

قالت ألم تكن في غاية السرور

قال نعم

قالت أتذكر انك قدّمت طاقة من الازهار الى مريم ابنة كامل وهي بجانبي

فقال اتذكر ذلك

قالت اني لم اعهد فيك هذا الاقدام من قبل فما الذي جرّأك عليه فسكت ثم قالت انا اعلم يا بنيّ ان الذي جرّأك على ذاك هو الذي جعلك تمشي متمايلاً عند رجوعنا وهو الذي جعلك ان تنام بدون تغيير ثيابك وانت لا تعي وهو الذي لا اريد كرماً ان اسميه فكيف اطيق ان فؤادي يكتوي فيه

فأطرق فؤاد الى الارض خجلاً ثم قال وكأنه وجد عذراً يا امي ان المقام مقام سرور والكل يطربون و يشربون وقد ألحوا عليّ فأُخذت من حيث لا ادري ولا سيما ان الخواجا كامل نفسهُ وهو رجل كامل قد جارى القوم وشرب معهم أفأُلام على ذلك وانا شاب فأثر فيها كلامهُ وقالت في نفسها كم يجب على الكملة ان يحترزوا من كل ما يعثر الشبان فيما لا يخشى عليهم هم منهُ . ثم قالت يا بنيّ ان الخواجا كامل ليس هو عرضةً للوقوع في خطر سلطة عادة الشرب السيئة كما انت في خطر

منها وما يؤيد ذلك ان الخواجا كامل لم يظهر عليه شيء من تأثير الشراب ولعله لم يشرب سوى كأس واحدة واما انت فلم تقف على حدٍ ولربما انك تُغلب في كل مرةٍ تدعى فيها الى عرس او وليمة كما غُلبت ولا تلبث ان تكون فيما بعد من اكابر السكارى لا سمح الله ومن يدري الى اي شقاء تصل حينئذٍ فان للخمر وسائر صنوف المسكرات تأثيراً في الدماغ يزيد بتكرار الشرب ومدمن الخمر عرضة للامراض والجنون والموت فاحذر لنفسك منها

بادر الى استئصال كل جريرةٍ
من حقل قلبك قبلما تتمكنُ
فلئن ونيتَ عن اقتلاع اصولها
تمتدُّ حتى قلعهـــا لا يمكنُ

ثم قالت له اني لم اكلمك قبلاً بامر الاحتراس من المسكرات خوفاً من ان انبه افكارك اليها اما الآن وقد شاهدتك بالامس في حالة لم اشاهدك فيها من قبل فاكرر نصيحتي لك ان تضع دائماً ما جاء في سفر الامثال نصب عينيك فان في الاصغاء اليه لفائدة عظيمة لكل انسان وبالاخص للشبان فأؤمل ان تكون هذه في المرة الاولى والاخيرة لشربك المسكر. وكان فؤاد يصغي الى قولها الاصغاء التام. فقال لها ولكن ألا يباح للانسان ان

يشرب قليلاً في الولائم والاعراس ولا سيما لمن لا يخشى عليهم ان يصلوا الى درجة من أُهملت تربيتهم والاَّ فلماذا وُجد الشراب. فقالت لخراب من اباح لنفسهِ شرب القليل ثم تخطاهُ الى الكثير ومن يعلم انهُ متى اعطيت نفسك هواها لا تجمح عليك حتى لا تعود تستطيع كبح جماحها

والنفس كالطفل ان تهملهُ شبَّ على
حبّ الرضاعِ وان تفطمهُ ينفطمِ

وخاتمة كلامي انك يا عزيزي ان تفطم نفسك عن كل مسكر متنكبًا عن طريق السفلة فان المعاشرات الرديئة تفسد الاخلاق السليمة واعلم انني عن قريب سأُتمم لك ما وعدتك بهِ من خطبة مريم ابنة الخواجا كامل فانتبه لنفسك. فاذعن فؤاد لقولها ثم قام وذهب الى المخزن وهكذا كان يذهب اليهِ كل يوم في الصباح ثم يعود الى البيت في المساء. وكان زاهي يتقرب اليهِ ويذهب وإياهُ بعد انقضاء الاشغال للتنزه بين البساتين ويصرفان هناك برهة منفردين الى ان صار بينهما الفةٌ وصحبة. وحدث مرَّةً ان زاهي ذهب وإياهُ الى مكان يسمى مسرح الظبا فاخرج زاهي من جيبهِ زجاجة مملوءة عرقًا ثم ملأَ قدحًا وقدَّمهُ الى فؤاد فتوقف فؤاد عن اخذهِ لا كراهةً لهُ لانهُ صار يميل اليهِ وبالنهُ بل خوفًا من ان تشمَّ امهُ رائحة الشراب فتعنفهُ فقال لهُ

زاهي ما بالك متوقفاً عن شربها في هذا المكان النزه ولا رقيب علينا

فاخبرهُ فؤاد عما في نفسهِ واعتذر اليهِ

فقال لهُ زاهي لا يجمل بك وانت شاب ان تخشى تعنيف امرأة كانك ولد فاشرب ولا تبال بخفافة راي النساء وكن حراً . هذه الزجاجة الصغيرة لا تكاد تهيج بنا الكيف وان شئت اخفاء الرائحة هرباً من اللوم فهذا هين عندي . حينئذٍ ردَّ القدح الى فمهِ ثم مدَّ يدهُ الى جيبهِ واخرج منها علبة جميلة فيها حبوب صغيرة فوضع واحدة في فمهِ ثم لهث بعد قليل تجاه انف فؤاد وقال له ماذا شممت ؟ فقال اني اشتمّ رائحة عطرية فقال زاهي هل شممت اثراً لرائحة العرق . قال فؤاد . كلا . فقال زاهي اذا شئت الكيف ولم ترد ان يشعر احد برائحة المشروب فخذ مثل هذه الحبوب وهي الكفيلة لك باتمام المرغوب فسرَّ فؤاد بهذا الاكتشاف وشاركهُ بشرب تلك الزجاجة فلما انتهيا من شربها نهضا يتمشيان راجعين ولما وصلا الى مفرق الطريق حيّى كل منهما صاحبهُ وذهب الى بيتهِ . اما فؤاد فلما رأى ان امهُ لم تشعر برائحة الشراب اشترى علبةً نظير علبة زاهي وصار من ذلك الحين يتعاطى الشرب سراً مع زاهي وغيرهِ الا ان الكمية التي كان يشربها لم تكن حينئذٍ كبيرة وبقي على ذلك زماناً الى حد ما يجعله مسروراً

وفي ذلك الحين تكلمت باسمة مع الخواجا كامل بخصوص بنتو مريم عروسًا لفؤاد وسألتهُ بعبارات لطيفة ان لا يردّ طلبها لانهُ هو المحب المخلص الذي اعتنى بها اولاً ولا يزال سندًا لها . واذ كانت افكار الخواجا كامل مستعدة لذلك قال لها ان لم تكن مريم لفؤاد فلمن تكون وصادقت امرأتهُ سلمى على ذلك فشكرتهما وجرى بعد ذلك امر الخطبة . ثم بعد اشهر قليلة تمَّ عقد الزواج وسرَّت باسمة اعظم سرور وقد احب فؤاد مريم جدًا وبعد سنة اتاهُ منها مولود دعا اسمهُ هاني فسرَّ بهِ جدُّهُ اوفر سرور وخصص بهِ اسهمًا من ارباح المخزن وكان قد سلم ادارة المتجر لفؤاد لانهُ طعن في السن وضعفت همتهُ الاَّ ان مرجع الحسابات اليهِ وكان فؤاد مسؤولاً بها

واصاب الخواجا كامل مرض ثقيل اعيى نطس الاطباء فلم ينجع فيهِ دواء فقضى فيهِ نحبهُ فحزنت امرأتهُ سلمى حزنًا شديدًا لفراقهِ وكذلك ابنتهُ مريم وباسمة وفؤاد واسف الجميع عليهِ وحسبوا فقدهُ خسارة كبيرة لانهُ كان امينًا صادقًا في القول والعمل . وبعد ما احتفل بمأتمهِ ودفنهِ قضت سلمى مدة ايام التعزية في بيتها ثم انضمت الى عائلة فؤاد وسكنت معها

وكانت باسمة تعزيها كثيرًا ولا تفتر عن ايراد آيات الكتاب المقدس لها كما كانت عادتها بتعزية المصابين وصارت

بها عائلة فؤاد مؤلفة من خمسة انفس عدا الخادمة والجميع
باتفاق تام تنبسط عليهم اجنحة السلام

الفصل التاسع

الاستقلال

وكان بعد موت الخواجا كامل ان فؤاداً استقل بالعمل في المخزن ولما اجرى تصفية الحسابات وجد ان مبلغاً كبيراً من المال تحت مطلق تصرفهِ . ولما صار سيد العمل لم يعد يتنازل لمسك الحسابات بيدهِ فعزم ان يضع فيهِ كاتباً وبينما هو يفتش ليجد ذلك الكاتب واذا بزاهي قد حضر لديهِ وطلب ان يعينهُ في تلك الوظيفة فصادف طلبهُ قبولاً لانهُ كان صديقهُ العزيز فتسلم زاهي حسابات المخزن فوضعهُ فؤاد في ادارة بعض الامور ولم يستشر بذلك احداً . ثم التفت هو الى اتباع المسرات وحام حول موائد اللهو والملذات واستصحب اناساً لمنادمتهِ وصار يتأخر عن المجيء الى البيت على خلاف عادتهِ فتقلقت افكار العائلة من نحوهِ ولم يعد يقبل نصائح امهِ وصار يقابل العتاب بالنفور والملامة بالخشونة وقد تغيرت اخلاقهُ فشملت الوساوس اهلهُ

واذ كانت العائلة تنتظرهُ مرةً وهي سهرانة وقد انشغلت افكارها من نحوهِ حضر حينئذٍ وكان حضوره متأخرًا جدًا فقالت امرأتهُ بعد ما جلس ان فؤادًا لم يعد يسرُّ بعاشرتنا لذلك صار يتأخر بمجيئهِ ولا يبالي بنا . فقالت سلمى لعلهُ وجد من تسرّهُ عشرتهُ اكثر منا فتنهدت باسمة ولم تتكلم بشيء واما هو فبقي ساكتًا وبعد قليل قام وذهب الى مخدعهِ ونام ولم يسأل عن الطعام

فقالت امهُ في نفسها يا ترى ما الذي غيَّر عقل ابني حتى كلما اردت ان اكلمهُ ينفر مني اواه ها اني ارى نفسي على شفير جرفٍ هارٍ قريبة السقوط باعظم البلاء

قالت امرأتهُ وقد اطاشتها الفكر لقد خبا لي الدهر نصيبًا من المصائب فليس لي الاَّ ان اسلم نفسي لاحكام القدر

وفي الصباح نهض فؤاد وذهب من البيت الى مكان كان يقصدهُ مع صحبهِ للمنادمة وكلهم متعلقون بهِ لانهُ كان يصرف عليهم وهم يمدحون كرمهُ فمنهم من كان يقول هذا حاتمنـــا ومنهم من قال بل لقد انسى ذكر حاتم . ان الجبان يخشى ان يفلت الدرهم من يدهِ خوفًا من انهُ لا يعود يقدر على تحصيلهِ واما الشجاع نظير فؤاد حبيبنا فهو لا يبالي بصرفهِ لانهُ يحصلهُ من قلب الاسد وليس هو مثل زيد بخيل وكرمهُ اكبر دليل على شجاعتهِ وهكذا كانوا يملقونهُ . ولما صار آخر النهـــار ذهب الى

المخزن فظهر له من مراجعة الحسابات انهُ قد صار في تأخر عظيم بل يخشى ان يظهر بعد قليل افلاسهُ فعزم حينئذٍ على تغيير سلوكهِ ليتمكن بذلك من خداع امهِ فتسلم له ببيع الاملاك ويصطلح لذلك حالهُ فعاد الى البيت في المساء ولم يتأخر كما من قبل وهكذا بقي مدة ايام فسرّت امهُ بذلك وظنت انهُ قد أثر فيهِ الكلام . ولما ارتاحت الخواطر من نحوهِ جاء الى امهِ وقال لها اني لقد تعبت كثيراً من معاملة الشركاء في النرجسية . وقد رأيت ان صافي مدخولنا منها قليل جداً بالنسبة الى قيمتها وعلى ما ارى ان المصاريف في ازدياد والمدخول في نقصان لذلك قد عزمت ان ابيع تلك الاملاك واضيف قيمتها الى راسمال المخزن فيزيد مدخولنا بذلك ضعفين. فلما سمعت بأسمة ما ابداه لم تعارضهُ خشية ان يعود الى ما كان عليهِ بل قالت له بلطف يا بنيّ الملك لك وانت تتصرف بهِ كيف تشاء فافعل ما تراهُ حسنًا . فلما قالت ذلك ابرز من جيبهِ صك البيع وطلب اليها ان توقعهُ واذ كان لا بدّ من ذلك وقعتهُ بيد مرتجفة . فذهب بهِ للحال الى المشتري وقبض منهُ قيمة تلك الاملاك وضمها الى مال المخزن فتحسنت الاحوال وظهر لدى الناس ناجحًا خلافًا لما كانوا يظنونهُ سابقًا من امرهِ غير انهُ لم تمضِ الاّ بضعة اشهر حتى عاد الى ما كان عليهِ وصار يبيت خارج البيت فعادت الوساوس المقلقة الى اهلهِ وصارت كل واحدة

من اولئك النساء تجلس منفردة وتطلق لنفسها عنان الافكار فكانت امة تقول في نفسها ويحي أتراني قصرت في امر تربيتو وهو صغير . ان ضميري لا يلومني على ذاك ولم تكن تعلم ان الخادعين قد خدعوهُ ثم قالت لماذا يا ترى سقطت فيما كنت احتسب منهُ ام الايام لا تزال حنقة عليّ فاذخرت لي اكبر مصيبة لزمن شيخوختي ويحي ماذا اعمل . ولما لحظ انطون ما يدل على قرب افلاس فؤاد من سوء تصرفهِ اتى الى حماتهِ سلمى ونصح لها ان تفرز ما يخصها من المال وتضعهُ في البنك ليعود عليها نفعهُ لئلا تخسرهُ فاقلقها ذاك الخبر ورأت نفسها في حيرة من جهة مقابلة صهرها بهذا الخصوص الاَّ انها عزمت اخيراً ان تفعل ما اشار اليهِ انطون لكنها طلبت لذلك فرصة مناسبة ولما كلمت ابنتها مريم بذلك غصّت بالبكاء وهجمت على قلبها الاكدار هجمة الليث المفترس وكان بجانبها ابنها الصغير فنظرت اليهِ وضمتهُ الى صدرها وقبلتهُ وهي تقول في نفسها أواهُ ماذا يصيب هذا الولد الذي اعتاد على رغد العيش اذا صرنا الى حالة الفقر بعد الغنى والذل بعد العز . وكانت كل واحدة من باسمة ومريم وسلمى تقرأ على جبين الاخرى ما تكنهُ من الهواجس والافكار

وكان فؤاد يذهب الى المكان المعروف بمسرح الظبا ويصرف معظم اوقاتهِ مع صحب قد الفهم عند رجل خمار اسمهُ

دردور كان يستخرج المسكر بنفسو ويستحضر منهُ انواعًا غريبة من الاماكن البعيدة واخص ندمائو اثنان واحد يقال لهُ مفرج ولهُ بيت هناك في بستان لا يبعد عن مسرح الظبا الاّ قليلاً بجانب وادٍ يقال لها وادي الطرب وآخر اسمهُ نصور كان يفتخر انهُ يشرب مقدارًا من المسكر يعجز اعظم السكيرين عن شربو . واذ كان فؤاد مجتمعًا مرّة عند دردور مع ذينك الصاحبين سأل مفرجًا ان يرسل الى بيتو ويجلب لهم شيئًا من الطعام اذ كان في خاطره ان يبقى ليرى مقدار ما يستطيع نصور شربهُ في ذاك اليوم على شرط ان يدفع ثمن ما يشربهُ . وبعد قليل جاءت امرأة مفرج وعلى يدها طبق عليهِ صحون مغطاة فتقدمت ووضعت الطبق امام رجلها ثم رجعت الى الوراء ووقفت فمدّ مفرّج يدهُ وكشف تلك الصحون فلم يرَ فيهـا شيئًا فخجل امام فؤاد فالتفت اليها وانتهرها وقال ما هذا يا قليلة الحياء ابن الطعام

فقالت لهُ هذا هو نوع الطعام الذي احضرتهُ الى اولادك فتوعّدها بالضرب والاهانة في البيت دالاً على ذلك بيدهِ بجميع اصابعهِ الثلاث فمدّ فؤاد يدهُ الى جيبو واخرج ليرا والقاها اليها وقال لمفرّج اقبلها مني ولو على سبيل القرضة . وقبل ان ينتهي نصور من شرب المقدار الذي شارط عليهِ اذا برجل قد جاء الى فؤاد وقدّم لهُ ورقة من الكاتب عليها اسطر

قليلة واذا فيها

ورد علينا تحويل بمبلغ كبير وليس في المخزن نقدية والصرّاف ابى ان يقبل امضاء جنابكم فارجو حضوركم حالاً

فلما قرأ فؤاد تلك الورقة اصفرّ لونهُ وسقط الكاس من يدهِ وقام في الحال وذهب بكل سرعة الى المخزن وفيما هو مارٌّ في السوق كان الناس يتكلمون عليهِ بصوت واطيء وبقولون عما قليل ينكشف امرهُ وكان هذا يتتبعهُ بنظرهِ وذاك يشير اليهِ باصبعهِ حتى خجل من نفسهِ وما صدق ان وصل الى المخزن حتى طلب من الكاتب الوقوف على الحسابات فاحضرها اليهِ وبعد ما اجال النظر فيها رمى بالدفتر الى الارض وانسلّ من المخزن وهو لا يدري اين يذهب وقد ضاقت الدنيا في عينيهِ فوصل الى مكان منفرد خارج المدينة وجلس هناك تحت شجرة واضعاً كفهُ على خدهِ وجعل يراجع ماضي حياتهِ والدموع تسيل من عينيهِ

الفصل العاشر

الشقاء والضيق

وبقي فؤاد تحت تلك الشجرة يخاطب نفسهُ ويقول ويحك

يا فؤاد كيف وصلت الى هذه الحال حال الذل والهوان ألم تسمع ما اصاب جبران من غوائل المسكرات أولم ترَ ذاك الذي سقط في البحر من جراها أوَما سمعت في مدينة الجنائن خصام السكارى وما ألمَّ بهم من شرّها أوَما رأيت ذلك الحشاش في بلدهِ ألم تسمع من امرهِ ما يكفي لحالك زاجراً لو كنت ممن يفقهون أولم تتوالَ عليك النصائح تترى فلم تعرها أذناً صاغية لِمَ لم تصغِ الى نصيحة امك التي تعبت عليك وربّتك بالدموع . ويحك قد اغتررت باقوال الطائشين واصغيت لزخرف اقوال المملقين آهاً من الكاس آهاً منك يا مسكر لقد اهلكتني موتي خير من حياتي آه ماذا اعمل أأقتل نفسي بيدي واتخلص من حياتي المرّة ألا من سكين معي ثم مدّ يده الى جيبهِ ليجد آلة جارحة ليقتل نفسهُ فلم يجد . ثم طرأ عليهِ فكر جديد فقال هبني قتلت نفسي فما الفائدة من ذلك وماذا يصيب اولئك النسوة المساكين وذلك الولد الصغير آه ما اتعس حالي آهاً من عادة السكر ما اشرَّ عواقبها آه ماذا اعمل

وشاع في المدينة امر انكساره وتحدث الناس به وقال كثيرون هذه عاقبة الكاس والانصباب عليها وبلغ الخبر عائلتهُ امهُ وامرأتهُ وحماتهُ فكان ذلك الخبر اشدّ وقعاً عليهنَّ

من الصاعقة واخذنَ بالتنهد والبكاء ولم يذقنَ طعاماً في تلك الليلة ولما لم يعد فؤاد الى البيت حسبنَ لذلك الف حساب وزاد قلقهنّ لئلا يكون قد قتل نفسهُ او القى ذاتهُ في البحر ولم يعدنَ يفتكرنَ كثيرًا في امر المال وحينئذٍ ارسلت باسمة الى الخواجا انطون تسألهُ المساعدة في التفتيش عنهُ فلم يسعهُ الاَّ المجي اليها بنفسهِ وقد استصحب معهُ من الخدم من يعتمد عليهم . وبعد ما سكنت الخواطر ذهب بمن معهُ للتفتيش عن فؤاد بالمشاعل والفوانيس

وكان قلب كلٍ من اولئك النساء كأنهُ على مقالي الجمر يخشين ان يسمعنَ ادنى حركة لئلا يكون خطوات آتٍ يخبر بموتهِ . اما الخواجا انطون فاخذ يفتش من مكان الى مكان ويسأل من يظن انهُ يعرف شيئًا

وما زال يدور الليل كلهُ ولم يقف لهُ على خبر وبينما هو آخذ بالرجوع وقد عجز عن ان يجدهُ وكان قد خرج للتفتيش خارج البلد وكان الفجر قد طلع فرأى شبحًا ممددًا تحت شجرة هناك فدنا منهُ فاذا بهِ فؤاد فتقدم وايقظهُ فانتبه وحينئذٍ امسكه بيدهِ وانهضهُ واخذ يلاطفهُ بالكلام ويلين لهُ المقال حتى رجعت اليهِ قواه فقال سكن جأشك فالمال معوّض اما سمعت قول الشاعر

ما دام للأجل القناص اجنحةٌ
لا يفلت الصيد منهُ حيث ينهزمُ

ثم قام ومضى بهِ الى البيت فاستقبلتهُ العائلة بوجوه باشّة وكانت في تلك الليلة لم تذق الرقاد واخذوا يبحثون بالاستناد الى راي الخواجا انطون فيما يجب عملهُ للافاة الحال وقد سمحت امهُ بان يباع البيت سدًّا لبعض المطاليب لئلاً يصيب ابنها عارض ما او يهلك نفسهُ انتحارًا ولما جرى الحساب تحت مناظرة منتخبين وُجد ان النقدية والبضائع والصكوك مع البيت لا تفي بكامل المطلوب . وكان البيت نصيبًا لواحد من اصحاب الديون وقد تعين يوم استلامهِ ففي ذات يوم بينما كان فؤاد جالسًا في البيت مطرقًا الى الارض وامهُ وامرأتهُ بجانبهِ يحدثانهِ اذ حضر رجلٌ من قبل من امتلك البيت وطلب اليهم تفريغهُ حالاً لان سيدهُ عازم على الانتقال اليهِ فلما سمعوا ذلك اعترتهم الحيرة ولم يعلموا بما يجيبون ولا الى اين ينتقلون فارتبكوا واخذوا يتنهدون ولا يدرون ماذا يعملون . فلما رآهم ذلك الرجل على تلك الحال قال لهم ان سيدي يسمح لكم بالسكن في الطابق الاسفل الى وقت غير معين وذلك بدون اجرة اشفاقًا عليكم فجرحت هذه الكلمة قلب فؤاد وودَّ لو كان من صف الاموات

ولا يخفى ان ذلك الطابق هو الذي كان بسكنهُ ابو جبران من قبل

ولما رأَت باسمة انهُ لا بد من النزول اليهِ تجمعت ونزلت ونظفتهُ بقدر ما تسمح لها قوتها ثم ارسلت الخادمة بطلب عتال لنقل الاغراض التي يعسر عليهم نقلها وحينئذٍ باشروا النقل شيئاً فشيئاً من الطابق الاعلى الى الطابق الاسفل ولم يمسِ المساء حتى اكملوا النقل بالتمام الى ذلك المسكن الحقير وباتوا ليلتهم فيهِ وفي قلب كل منهم ما لا يوصف من الغمّ والكدر ولم يذوقوا شيئاً من الطعام ولا ذاقوا طعم المنام وقد استوحش الصبي الصغير فشاركهم في القلق وقال لامهِ معانقاً اياها لماذا يا ماما تركنا بيتنا الجيد ونزلنا الى هنا فتنهدت امهُ حسرة وانهملت عبراتها وقبّلتهُ ولم تجبهُ بكلمة . وكانت الزفرات والتنهدات كل ذلك الليل تنبعث من صدر كل منهم والدموع تجري على الوجنات فتروي الوسادات وفي الغد اخذت كل واحدة بدورها تخفف بلطيف الكلام اكدار فؤاد غير المحتملة خوفاً عليهِ من سوء العاقبة وكانت باسمة تحمل تلك المصيبة بصبر جميل وقد اخفت الكمد واظهرت الجَلَد

واما حمانة فرأَت الضربة عليها مضاعفة لانها خسرت مالها واستهدفت هي وابنتها لوقع اسهم الشقاء وكانت مريم امرأَة كمن سقط من شاهق مضعضعة الاحوال والكدر ملء قلبها ثم ان كل

واحدة من اولئك الثلاث اخذت تباشر بنفسها ما يلزم للبيت من الخدمة من غسل وطبخ وعجن وكناسة وغير ذلك لان باسمة كانت قد صرفت الخادمة فقاسينَ من ذلك اتعاباً لعدم تعودهنَّ على مثل تلك الاحوال سابقاً وقد خدَّش الغسل ايديهنَّ وأثرَ تعب الجسم فيهنَّ فضلاً عن الاتعاب الفكرية فظهرت على تلك العائلة آثار الضعف والهزال ولا سيما مريم لانها كانت في حالة الحمل

وابتدأت تشعر تلك العائلة بالاحتياج الشديد فاخذت كل من اولئك النساء تبيع ما بقي عندها من الحلى والحلل لسدّ العوز ولما فرغنَ من ذلك اخذنَ يبعنَ ما في البيت من الامتعة والاثاث حاجة بعد حاجة وقطعة بعد قطعة

ولبث فؤاد منزوياً في البيت وهو يودّ ان لا يرى احداً ولا يُرَى من احد وبقي على ذلك اياماً وكانت مريم تجتهد جدّاً بتسليتهِ فأثرت فيهِ ملاطفتها وبينما هو منفرد بنفسهِ مطرق الى الارض جعل يفتكر فيما يعوّل عليهِ لسدّ احتياج تلك العائلة الضروري فقال في نفسهِ اي عمل يا ترى استطيع ان اعمل آه لقد ضاق بي الامر جدّاً يا موت هلمّ وارحني من هذه الحياة

ألموت اطيب من حياة مرّةٍ
تقضى لياليها كنقض الجلدِ

آواه ماذا اعمل ليس احد يأتمني أفأستعطي

وابسر من كفي اذا ما مددتها

لنيل عطاء مدّ عنقي لذابح

ويحي انا الذي جلبت على نفسي كل هذا الشقاء وألقيت ثلاثاً لا ذنب لهنّ في اشدّ البلاء هاتين الارملتين المسكينتين وتلك التي ربما تكون عن قريب في صفهنّ ولا سند لهنّ ويلاه لمن الويل لي . لمن الشقاء لي . لمن الكروب لي . كل ذلك لي لقد هلكت يا فؤاد

ثم اقبل الشتاء ببرده القارس وحينئذٍ كان قد دنا زمن وضع امرأته مريم فولدت غلاماً وهم في اسوإ حال ولما كانت معتادةً من قبل على رغد العيش ولم تحصل حينئذ على الوسائط الكافية من مواد الدفء والطعام المناسب فضلاً عما كانت تقاسيه من الاكدار والهموم اصابها مرض ثقيل زاد العائلة ارتباكاً وتعباً فجعلت باسمة وسلمى يهتمان بتدبير ما يلزم لراحة العائلة على قدر الامكان وتجتهدان بتخفيف اتعاب مريم وفؤاد وتقديم ما يلزم من الاحتياجات غير ملتفتتين الى نفسيهما فكانت باسمة تحيي اكثر الليل بجانب سرير الطفل الصغير محتملة ألم البرد بينما كانت سلمى تعتني بمريم ابنتها ولكن رغماً عن كل اجتهادٍ لراحتها كان مرضها يشتد يوماً فيوماً بما اشغل الافكار من جهتها وفيما كانت

سلمى جالسةً بجانب فراشها رأت لزوماً كلياً لاستدعاء طبيب لمعالجتها لكنها لما نظرت الى البيت الخالي من الاثاث ورأت باسمة ترتجف برداً باثواب خفيفة وهي حاملة الطفل الباكي جوعاً على ذراعيها وبجانبها اخوه الاكبر مهزولاً مصفراً قالت في نفسها كيف يمكن ان نستدعي طبيباً وما عندنا من الدراهم على وشك النفوذ آه يا ربي ماذا نعمل فشعرت مريم ان امها مهتمة بامرها فقالت لها بصوت ضعيف لا تهتمي يا امي لا تهتمي انا ارى ان لا علاج لي الا ان يرتاح فكري وهذا لا مطمع لي به فدعي المقادير تجري في اعنتها فأخذت امها تسليها بلطيف الكلام وتقول لها يا ابنتي ما بعد العسر الا اليسر ولسنا باول من دهمته المصائب في الدنيا ولعلّ الله لا يتركنا في هذه الحال فان فرجه قريب ولعلّ فؤاد قد تعلم مما اصابه ان يغير سلوكه الماضي ويترك تولعه بالمسكرات ويعمل عملاً ينجح به فانه ذو نشاطٍ واقدام فتنهدت مريم وصمتت

اما فؤاد فلما رأى نفسه محاطاً بالهموم من كل جانب وقد صار مضغة في افواه الناس ولا قدرة له ان يساعد امرأته وهي في تلك الحالة وقد تصوّر في نفسه حسن معاملتها له واجتهادها بتخفيف كربته ورأى ولديه الصغيرين في حالةٍ يرثى لها الصغير يبكي اكثر الاحيان لعدم وجود غذاء مناسب له والكبير مصفراً مهزولاً من البرد والطعام الخفيف وشاهد امه تشتغل في البيت من الصباح الى المساء وحماته تساعدها في تلك الاعمال وقد

بدت على وجهها علامات الضعف والانحطاط فلما تأمل بكل ذلك عظم عليهِ الامر جدًّا فنهض لساعتهِ وذهب من البيت متواريًا عن اعين الناس فوصل الى مسرح الظبا ولما دنا الى حانة دردور وجد البوليس و بعضًا من رجال الشرط يريدون اخذهُ الى دار الحكومة بالقوَّة المسلحة ولما رأى فؤاد ذلك عرَّج من هناك الى وادي الطرب وجلس بجانب النهر منفردًا ومعهُ زجاجة مملوءة عرقًا وجعل يشرب زاعمًا ان بذلك يفرج كربتهُ لكن الشرب لم يخفف شيئًا من همومهِ بل زاد انفعالاتهِ تهيجًا وعزم ان يقتل نفسهُ بيدهِ تخلصًا من الشقاء والعار ولما صمم على الانتحار قال أَواه ماذا يصيب تلك العائلة المسكينة بعدي امي العاجزة وامرأَتي المريضة المسكينة وولديَّ الصغيرين المنكودي الحظ وتلك الارملة التي اتلفت انامها ولكن ماذا تفيدهم حياتي وانا على هذه الحال لالا لست أُريد ان احيا بعد واشاهد تلك العائلة تتضوَّر جوعًا ثم مدَّ يدهُ الى جنبهِ واستلَّ خنجرًا ماضيًا وجعل يقلبهُ ويتأمل فيهِ وهو يستعد ليغيدهُ في مقتل من جسمهِ بضربة تقضي عليهِ عاجلاً وكانت لوائح اليأس والكآبة تهجم على عنفوان الصبا وعزَّة النفس فيظهر اثرها على جبينهِ الصلت ثم اهوي بالخنجر الى صدرهِ فانطرح وانقلب فسقط في النهر

وكان لما خرج فؤاد من البيت رأت امهُ امارات الانفعال الشديد على وجههِ فاضطرب قلبها واشتغلت افكارها وخشيت

من ان يقوده ذلك الى ما يزيد الحال شقاء وتعاسة مما لا تستطيع عليه صبراً فحزنت في نفسها وقالت وعلامات الانزعاج بادية على وجهها آه ما انعس حظي لماذا يا ترى وصل ابني الى هذه الحال السيئة ألم ابذل غاية جهدي بتربيتهِ تربية حسنة . حينئذٍ طرأ على عقلها فكر كأنهُ صوت يكلمها من خارج يقول نعم انكِ اجتهدتِ بتربية ابنكِ تربية ادبية لكنكِ قد اهملتِ واجباً آخر اعظم وهو انكِ غفلتِ عن تربيتهِ التربية المسيحية فلم تربي فيهِ الميل الى الصلاة ولم تقيمي الصلاة العائلية كل يوم كما هو الواجب ولما فاجأها ذلك الفكر انتبهت الى غلطها فاضطرب فؤادها وتصبب جبينها عرقاً فقالت نعم ان اعظم المصائب نتيجة عدم اتباع الواجب فرأت نفسها في ضيق شديد ولا معين لها حينئذٍ خطر على بالها قول الكتاب "ادعني في يوم الضيق انقذك فتمجدني" فانفردت بنفسها وجثت على ركبتيها بنفس مرة وسكبت نفسها والدموع تذرف من عينيها وصلت الى الله ضارعة لينظر اليها بعين الرأفة وينقذها من ضيقها وينير عقل ابنها ويغير اطوارهُ ويهدي سبيله ويفرج كربتها ولما انتهت من الصلاة ذكرت ما قالهُ احد الآباء لأم القديس اوغسطينوس وهو "ان الله لا يهمل اماً تسكب هذه الدموع لاجل ابنها" فشعرت براحة في ضميرها حينئذٍ. ثم اخذت تعمل عملها في البيت مسلمة امرها لمشيئة الله لكن لما امسى المساء ولم

يرجع فؤاد اخذ الاضطراب وانشغال الفكر والقلق من اولئك النساء كل مأخذ ولما اظلم الليل ولم يأت كبرهايهن الوهم واحاطت بهن الوساوس ولم يعلمن ماذا يعملن وخطر على بال باسمة ان تطلب مساعدة الخواجا انطون ايضاً لكن رجليها المرتجفتين وبكاء الولدين الصغيرين وزيادة الحمى على كنتها كل ذلك اوقف عزمها عن الذهاب الى بيت الخواجه انطون ولم يكن في البيت من يستطيع الذهاب اليه فجلست وفي قلبها نار الانتظار ولما اشتد ظلام الليل باتت كل من اولئك النساء تفتكر في ما عسى ان يكون قد اوقف فؤاد عن الرجوع وما زلن والافكار المزعجة تقلقهن كل ذلك الليل وماصدقت باسمة ان طلع الصباح حتى نهضت وكان لم يغمض لها جفن ثم اتت ووقفت في باب الدار لعلها تجد من المارين من تسأله ان يدعو لها الخواجا انطون ولكنها بينما كانت واقفة سمعت اناساً من المارين يتحدثون في انه قد وُجد في النهر غريق ونُقل الى دار الحكومة ليجري الفحص عن امرهِ وقال البعض المرجح ان موته كان من قِبل السكر فلما سمعت باسمة هذه الكلمات هلع قلبها فدخلت الى الداخل وهي تتأوه وتخدش وجنتيها وتقول أوّاه أوّاه لقد انقطع كل رجاء وخشيت من ان ترفع صوتها لئلا يكون ذلك سبباً لزهوق روح كنتها

ولما رأتها سلمى تبكي نهضت ايضاً ودنت منها وسألتها

باضطراب وهي تقول ما الذي جرى اخبريني أفاعلمتها بما سمعت وقالت وهي تبكي اني لااشك ان ذلك الغريق هو ابني وبلاه لم تعد لي قدرة على المشي لاذهب بنفسي واستقصي الخبر آه يا ربي ماذا اعمل

وحينئذٍ وقف رجل من قبل الحكومة خارجاً ودعا من في الداخل لمقابلتهِ فجاءت سلمى لتقابلهُ واما باسمة فلما سمعت صوتهُ وَهى عزمها عن النهوض وكاد يغمى عليها ولم تعد تنتظر الاَّ مفاجأة الخبر ان الغريق هو فؤاد . اما الرجل فقال لسلمى انهُ وقد وجد في وادي الطرب غريق في النهر ونقلت جثتهُ الى دار الحكومة للفحص عن امرهِ ونظراً لتغيير هيئة الغريق لم يكن من يعرف من هو لكنَّ البعض قال انهُ اشبه برجل ينتسب الى هذه العائلة اسمهُ فؤاد فارسلوا من تعتمدون عليهِ للنظر في ذلك . فلما سمعت سلمى كلامهُ كادت تسقط في الباب من هول ذلك الخبر الفجائي وحارت في امرها ولم تعلم ماذا تقول لباسمة وخشيت من ان تسمع ابنتها ذلك فتموت ايضاً وبما انهُ كان لا يسعها كتمان الامر لان باسمة كانت تنتظر رجوعها لتعلم ماذا جرى جاءت اليها واخبرتها عما سمعت فترجح لديها حينئذٍ ان الغريق هو وحيدها فجعلت تنتحب بلوعةٍ وانكسار قلب وعند ذلك جاست مع سلمى تتوقع كشف حقيقة تلك الفاجعة واذا بالخواجا انطون قد حضر وكان قد سمع ما شاع في البلد من امر الغريق . فبعد ما جلس

فلما سأَل باسمة مستفسراً عن وقت خروج فؤَاد من البيت وعن المكان الذي ذهب اليهِ فاخبرتهُ عما عرفتهُ من ذلك . فللحال نهض وتوجه الى دار الحكومة ليقف على جلية الخبر فلما رأَى الغريق نظر اليهِ فلم يقدر ان يعرفهُ لاسوداد هيئتهِ وعدم رجوعهِ تلك الليلة الى البيت مع ما علمهُ من استقصاء البوليس من جهتهِ لم يبعد عندهُ شبهة ان ذلك الشخص الميت هو فؤَاد بعينهِ . فسعى من نفسهِ بعمل تابوت ووضع تلك الجثة فيهِ واتى بها بعجلة الى اهلهِ ومشى هو وكثيرون غيرهُ خلف الجنازة وما زالوا حتى وصلوا الى بيت باسمة . فلما رأَت باسمة التابوت صرخت واويلاه وسقطت مغشياً عليها وجعلت سلمى تبكي وتلطم حتى كاد يغشى عليها . ولما وُضع التابوت وكُشف عن الجثة الغطاء بكى كل من كان هناك بادمع حرَّى . وكانت باسمة قد افاقت من غشيتها فلما لمحت هيئتهُ متغيرة جداً أُغمي عليها ثانية وسقطت ثم استفاقت ولم تعد تطيق ان تعيد النظر اليهِ بعد بل اخذت تندبهُ بما يمزق القلوب حزناً وقالت واأسفي أهذا ولدي الذي جعلت فؤَادي مسكنهُ زمن طفوليتهِ أهذا من لم اعرف التعب بحملهِ والمشي بهِ في البيت ليلاً ايام مرضهِ . أهذا الذي كنت أتمنى ان يأخذ صحتي واحمل مرضهُ ليبقى معافى مسروراً أهذا وحيدي الذي صرفت حياتي لاجلهِ آملةً ان يكون لي سروراً وتعزيةً أهذا حبيبي الذي كان يبتهج قلبي بشبابهِ النضر ورجوت ان يكون من احسن

رجال عصره . ربي لماذا ابقيتني في الحياة لارى ما ارى الآن وبلاه ما اصاب هاتين اليدين المتخضبين الآن اللتين كانتا غاية في الجمال والغضاضة . آواه أيمكن ان يكون هذا الوجه المسودّ الذي لا يمكنني النظر اليه هو ذلك الوجه الصبوح الذي لم اكن اشبع من التفرس به آه وافؤاداه ماذا عراك فأدّى بك الى هذه الحال . ولدي وحيدي . وا أسفي عليك استيقظ يا من كان مجمع آمال أما تسمع صوت والدتك قبل ما يذريها الأسى رمادًا . انتبه يا مهجتي . آه واشقائي انه لا يسمعني انه قد مات . نعم قد مات قد مات يا ابني فؤاد يا ابني . يا ليتني مت عوضًا عنك يا فؤادي . ابني ابني

أضحت بخدّي للدموع رسومُ
أسفًا عليك وفي الفؤاد كلومُ
والصبر يحمدُ في المواطن كلها
الاّ عليك فانهُ مذمومُ

وكانت سلمى جالسة بجانبها تبكي بدمع سخين وبجانبها الولد الاكبر واقفًا مبهوتًا يبكي لبكاء جدّتهِ ولا يعلم ما هو جارٍ . واما الطفل فكان في سريرهِ بجانب فراش امهِ يبكي متألمًا من الجوع وامهُ في غيبوبة من الحمى الشديدة لا تعي على شيء الاّ انها انتبهت قليلاً بعد وقت فشعرت بحركة في البيت غير اعتادية ثم رأت

كثيرين يمرّون ذهاباً واياباً فتشاءمت من ذلك وكانت قد علمت ان فؤاداً لم يرجع الى البيت فخفق فؤادها وحينئذٍ دخلت اليها امها لتفتقد حالها وهي تمسح دموعها . فلما رأتها كذلك سألتها ماذا جرى يا امي فسكتت امها وقد خنقتهـــا العبرة فلم تستطع الجواب فعلمت مريم من ذلك انهُ قد جرى ما كان في الحساب فانفطر قلبها وجعلت تبكي بدمع سخين وحاولت النهوض من الفراش فلم تستطع فلبثت فيهِ تندب حبيبها بصوت ضعيف بما يمزّق فؤاد الجماد وهي تقول واحسرتاه أهذا ما كنت اتوقعهُ باقتراني بك يا فؤاد أواه انني احتمل الذل والفقر والمرض وكل امر يهون عليّ دون موتك ايها الحبيب أواه ليتني كنت مت قبلك يا رفيق حياتي لكن ثق اني عن قريب أتبعك وماذا يحل حينئذٍ بهذين الولدين الصغيرين . . . ان لها ارملتين تعتنيان بهما فهما في غنى عني انا الارملة الجديدة المسكينة المريضة

وكان قد حضر كثيرون من المعارف والاصدقاء ورثوا لحال تلك العائلة المضنوكة تحت ثقل ذلك الخطب الجسيم

وبعد حين حملوا الميت الى المقبرة وواروهُ التراب آسفين على نضارة شبابهِ ومتوجعين كثيراً لباسمة لكبر ذلك المصاب

فانغمست تلك العائلة باثواب الحداد وخطّ الحزن على جبين باسمة خطوط الكدر والعجز . ورأت نفسهـــا في تلك الحالة الحرجة والظروف الصعبة وليس لها من يهتم معها بذينك الولدين

وتلك الارملة المريضة سوى سلمى وكلتاها أرملتان لا شيء بيدها ولا قدرة لها على العمل فالتجأت الى الله بالصلاة ثم جمعت ما بقي لها من القوة الضعيفة واخذت تعمل ما امكنها للقيام باود تلك العائلة

الفصل الحادي عشر

ويأتيك بالاخبار من لم تزوّدِ

ولما رأى الخواجا انطون ما حاق بباسمة من الضيقة بعد عزّها ذكر ما كان لها من المعروف ايام كان هو في مثل تلك الظروف فاستدعى طبيبًا على نفقتهِ وذهب بهِ لمعالجة مريم كنتها وعيّن على نفسهِ ما يلزم من الادوية وما زال الطبيب يتردد

على تلك المريضة حتى نقهت واذن الله بشفائها . ولما ملكت صحتها اخذت تسعف امها وحماتها في العمل وتشتغل بيديها ما تسدُّ بقيمته بعض الاحتياجات الضرورية على ان الطفل الصغير كان كثيرًا ما يعيقها

ولما كان شغل باسمة وكنتها مما لا يفي بسدّ ما يحتاجونهُ وقد رأَت باسمة اثواب العائلة خفيفة ووسائط الدفء قليلة والالسنة لاهجة بذكر ما يدلّ على وقوع غلاء شديد في الشتاء المقبل خشيت على عائلتها من ان يؤْلمها البرد والجوع فاعتراها الجزع وثقلت عليها الهموم من ثمّ رفعت نفسها الى الله فخطر على بالها قول الكتب وهو "ملقين كل همكم عليهِ لانهُ هو يعتني بكم" فشعرت حينئذٍ بتعزية سماوية وسلمت الامر لله متكلة عليهِ . وفيما هي جالسة والطفل الصغير على ذراعيها تتأمل فيهِ ومريم امهُ تخيط لهُ ثوبًا من عتيق اللباس وسلمى تلبس اخاهُ الكبير ثوبًا مما هو عتيق ايضًا اذا بشاب قد دخل وعلى وجههِ مخائل الخير فحيّى ثم جلس على كرسي قدّمت لهُ وقال بلهجة غريبة عن لهجة اهل السعدية أَيتكنّ هي باسمة ابنة مبسام

فقالت باسمة انا هي ماذا تريد

قال انا فرج ابن خيرالله من الروضة مدينة آبائكِ

فلما سمعت باسمة ذكر الروضة تهيجت حاسياتها واجهشت بالبكاء لكنها تجلدت وزاد انتباهها الى ما يريد ان يتكلم بهِ ثم

قال ومن مدة ثلاثة اشهر توفي والدي وهو شيخ الآن انه قبل موته طلب اليّ ان آتيهُ بعلبة صغيرة كانت في صندوقهِ فاتيتهُ بها ووضعتها بجانبهِ فالقى بهِ عليها وقال لي يا بني ان في هذه العلبة صكوكًا على البنك بمبلغ عظيم وذلك المبلغ ليس لي انما هو قيمة مجوهرات قد وضعها عندي احد اصدقائي على سبيل الامانة لكنهُ قُتل هو وولدهُ ولم يبقَ لهُ سوى ابنة اسمها باسمة ولم اعلم اين هي لذلك بعتُ تلك المجوهرات ووضعت قيمتها في البنك وهذه هي صكوكها ومنذ برهة حضر الى هنا تاجر من السعدية فتاكدت منهُ عن وجود تلك الابنة فيها فاوصيك يا ولدي ان تذهب بهذه الصكوك اليها وتعطيها اياها اذ المال هو لها ثم مدَّ الشاب يدهُ واخرج تلك الصكوك وقدمها لها فتعجبت باسمة واعتراها الانذهال من لطف الله وعنايتهِ وعلمت انهُ قد استجاب صلاتها ثم تناولتها منهُ بقلبٍ مسرور وهي تثني عليهِ وتشكر امانتهُ

وحينئذٍ نهض الشاب وودَّعها وانطلق لشانهِ. ولما استلمت باسمة تلك الصكوك قدمت لله الشكر العظيم من اعماق قلبها وشاركها في ذلك سلمى وابنتها مسرورتين معها فانفرجت كربتهنَّ جميعًا من جهة العسر المالي ولاسيما باسمة فانها رأت انهُ قد صار يمكن ان يتربى الولدان تربية احسن تربية وان يعيشا عيشة راضية وان كنتها وامها تحصلان على راحة بعد التعب وضنك العيش ولكن لم يكن ذلك لينسيها حزنها على ابنها فؤاد

وكان اول امر اجرتهُ باسمة بعد استلام تلك الصكوك انها ارسلت بعضها الى البنك واحضرت من النقود ما يكفي لسدّ احتياج كل العائلة من كسوة حسنة ومؤونة الى غير ذلك . ثم اهتمت بعد ذلك بامر استرجاع البيت ممن استولى عليهِ لانها رأت ان المبلغ الذي حصلت عليهِ يفي بالمطلوب ويبقى منهُ ما يكفي مدخولهُ لسدّ الاحتياج . واتفق حينئذٍ ان الذي استولى على البيت كان في حاجة الى المال فقبل التعويض وارجع لها البيت عند اول طلب . ولما رجعت باسمة الى بيتها اتخذتهُ كما كان اولاً ووضعت عندها خادمة فارتحن جميعاً من مشقة الاشغال الصعبة ثم وجهت باسمة معظم اهتمامها الى الولدين وخصوصاً الى الكبير منهما فانها اخذت ترسخ في ذهنهِ المبادئ الدينية وتعلمهُ عن محبة الله وعن الفداء بالمسيح وعن السماء والسعادة الابدية للمؤمنين وكانت تقص عليهِ قصصاً من الكتاب المقدس كان يسرّ بها كثيراً فتسر هي ايضاً . اما مريم فتذكرت ايامها الاولى مع فؤاد فأسفت على فقدهِ وكانت كثيراً مـــا تتأوه حسرةً عليهِ وهي باثواب الحداد وتقول في نفسها كنت اجدُ ان في الحياة لذة لو بقي فؤادي حياً اما الآن فلا قيمة لها عندي ولولا وجود هذين الولدين لما كنت ارضى ان اعيش ابداً

وبينما هي ذات يوم غائصة بمثل تلك الافكار واذا بالخواجا انطون قد دخل الى هناك ووجههُ يطفح سروراً وطلب ان

تجلس باسمة وسلمى ومريم ابنتها ليخبرهنّ خبراً مسراً وكان يظهر عليه انهُ محتار في كيفية تبليغهنّ اياهُ فجلست كل واحدة منهنّ تتفكر ماذا عسى ان يكون ذاك الخبر المسرّ وقد ظنت كل منهنّ انهُ لا يتجاوز اكثر من اكتشاف مبلغ جديد من المال يخصّ احداهنَّ فلم يحفلنَ بهِ كثيراً . اما الخواجه انطون فكان كمن في حيرة وهو يحترز ان يفاجئهنَّ بهِ خوفاً من ان تأثيرهُ العظيم يضرّ بهنّ لان الخبر المسرّ سروراً عظيماً ربما يضرّ من يفاجئهُ كما يضرّ لو كان الخبر محزناً كثيراً فقال

اني مخبركنّ بخبر اشبه بخبر اولاد يعقوب لابيهم بعد رجوعهم اليهِ من مصر في المرّة الثانية

فقلنَ في انفسهنّ ما عسى ان يكون ذلك الخبر ولم تهتدِ افكارهنّ اليهِ لغرابتهِ

فقال لهنّ فؤاد حيٌّ بعد فجمدت قلوبهنّ ولم يمكنهنّ ان يصدقنَ . ثم اكد لهنّ انهُ كان مسافراً في بلاد بعيدة وهو ناجح نجاحاً عظيماً وقد تاب عن كل مسكر ولكنّ اليوم تنظرنهُ بعيونكنّ . بل في هذه الساعة بل الآن الآن ثم نادى يا فؤاد ادخل وكان فؤاد واقفاً خارجاً ينتظر تلك الكلمة من الخواجا انطون فلما دخل وشاهدنهُ اعترتهنّ الدهشة وبهتنَ كأنهنّ غير مصدقات اعينهنّ برؤيتهِ وكأنهنّ في حلم.

حينئذٍ دنا منهنّ وامسك يد امهِ وقبّلها وتكلم معهنّ فاحطنَ

به كالمالة ووقعن على عنقه يقبلنه والسنتهن منعقدة عن الكلام ودموع الفرح تنسكب عليه وتمتزج مع دموعه ثم احتضن ولديه وجعل يقبلهما وامه تتفرس به وقد انطلق لسانها فقالت أهلا هو انت يا فؤاد الشكر لله الشكر لله الآن قد رجعت روحي اليّ . فملأ الفرح قلوبهن كمن قد قام من الاموات والحق يقال كذلك

الفصل الثاني عشر

النجاة

لا حاجة ان نقول ان الميت الذي ظنّ انه فؤاد لم يكن اياهُ بل كان خادمًا غريبًا عند دردور يساعده في استقراج المسكرات واما كيف انه حسب فؤادًا فذلك يتضح مما يأتي

انه في عصر اليوم الذي خرج فيه فؤاد الى مسرح الظبا حدث هناك حادثان غريبان الاوّل ان نصور الذي كان

يتباهى بالشرب الكثير كان جالساً عند دردور يشرب من انواع المسكرات المختلفة وكان دردور يجلب ما يطلبهُ ويذهب الى مكان كان يستخرج فيهِ عرقاً على نار خفيفة في كركة هناك هرباً من دفع الرسم. ولما امتلأ جوف نصور من خليط المشروبات كان بخارها يندفع من انفهِ ومن فمهِ اندفاع الغاز وقد تبللت ثيابهُ مما كان يتقيأهُ

وفيما كان دردور عند الكركة يوصي خادمهُ بوضع الزجاجة وضعاً محكماً تحت انبوبتها اشتم رائحة قتار فذهب ليرى ما ذلك واذا بنصور ملتهب كأنهُ عمود من زفت لعبت بهِ النار فهرع اليهِ فلم يدركهُ الأ وقد صار رماداً وسبب ذلك ان نصور قرّب الى سيكارةٍ في فمهِ عوداً مشتعلاً من النفط ليشعلها واذ كانت يدهُ ترتجف وهو في اشدّ سكرهِ المبهُ ذلك العود هو والسيكارة معاً فمات حرقاً. فلما رأى دردور خاف واضطرب قلبهُ وارتبك وكان قد حضر اناس اشتموا رائحة القتار ورأوا اللهيب من بعيد فرجع الى جهة الكركة ليخفيها احتساباً من ان يأتي البوليس فينكشف امرهُ. ولما دنا منها رأى خادمهُ ملقى على ظهرهِ وفمهُ مفتوح تحت انبوبتها والعرق يقطر منها ثخناً اليهِ فتقدم يريد ان يضربهُ على تلك الفعلة وقد اخذ الغيظ منهُ كل مأخذ ثم قال يناديهِ بصوت شديد يا خبيث ألا يكفيك ما تشربهُ من الزجاجة حتى تضع فمك تحت الانبوبة ثم دفعهُ برجلهِ فلم يتحرّك فامسكهُ بيدهُ وجذبهُ

الى جانب فاذا هو ميت لا روح فيهِ وحينئذٍ لمح البوليس آتياً فسحبهُ بخفة ووضعهُ في المستراح وقفل عليهِ بابهُ ثم اخفى الكركة ايضاً وذهب الى مجتمع الناس حيث كان البوليس يسأل عنهُ ليستنطقهُ

واتفق في ذلك الوقت اتيان فؤاد الى هناك فرأى البوليس وعرّج الى وادي الطرب

ولما علمَ دردور ان لا بدَّ من اخذهِ الى دار الحكومة وكان فكرهُ مشغولاً من جهة وديعتهِ في المستراح واجهَ مفرِّجاً احد اصدقائهِ الاخصاء واعطاهُ المفتاح وطلب اليهِ ان يطمر خادمهُ في حفرة اذا لم يحصل لهُ هو فرصة للرجوع ووعدهُ ان يعطيهُ عن ذاك مشمشة (او قشابة) من العرق الجيد

فقال لهُ مفرِّج (لا تحط بالك في شيء كل شيء يجري على خاطرك). ولما أُخذ دردور الى دار الحكومة جاء مفرّج ليلاً واخرج تلك الجثة من مكانها وقد صعب عليهِ ان يحفر حفرة ويطمرها فجرّدها من الثياب لكي لا تعرَف وطرحها في النهر فحملها النهر والقاها تحت دولاب ناعورة فاوقفتها وفي الصباح رآها بعض الناس فأسرع واخبر الحكومة فنُقلت الى دارها ليُفحص عنها وكان من امرها ما كان

اما ما كان من امر فؤاد فانهُ بعد ما سقط في النهر لم ينتبه الاَّ وهو في سفينة في البحر بجانب رجل شيخ كان قد استدعى

طبيب السفينة لمعالجتهِ . وكان ذلك الشيخ عندما سقط فؤاد في النهر ينظر اليهِ من قارب جاء يتنزه بهِ في تلك الجهة فلما رآهُ قد سقط اسرع بالقارب اليهِ وانتشلهُ فوجد انهُ لم يزل حيًّا فذهب بهِ الى السفينة وجعل يعتني بهِ هناك اعتناء الوالدة وكانت السفينة على وشك الاقلاع حين وصل بهِ اليها فقصد ان يرجعهُ الى وطنهِ بعد ان يشفى من احدى الاساكل التي يمرّ عليها

فلما انتعش فؤاد وشفي من جرحهِ رأى نفسهُ كمن قام من الاموات فتعلقت نفسهُ بمحبة ذاك الذي انقذهُ وكان ذلك الشيخ ذا هيبة ووقار عليهِ سمات اللطف والحنوّ فجعل يلاطف فؤادًا ويؤانسهُ ثم سألهُ معتذرًا ان يخبرهُ ما الذي الجاهُ الى ما فعلهُ بنفسهِ فقصّ عليهِ بكل خجل خبرهُ وما جرى لهُ . فلما سمع ذاك الشيخ كلام فؤاد وعرف السبب حزن كثيرًا وتأوّه لانهُ هو ايضًا وقع في حالةٍ اشبه بحالتهِ وقال (وكان قد اتخذ على نفسهِ ان يساعد كل من وقع في مثل تلك الحال) ايها العزيز اني فرحت جدًّا بنجاتك عن يدي من تلك التهلكة وانقاذك من خطر الهلاك الابدي فان محاولتك التخلص من العذاب بالانتحار تهوُّر مخيف اذ ما بعد الموت عذاب هائل للمنتحر لا ينتهي . فنصيحتي لك يا بنيّ ان تقلع عن شرب كل مسكر فلقد اهلكت المسكرات اكثر ممن اهلكتهم الحروب كلها وها انا الآن اقصّ عليك ما يجعلك ان تغمض جفنيك عن ذاك الهلاك مدّة الحياة فاسمع

وع. ثم طفق يتكلم فقال . انني ولدت في عائلة ذات شهرة وشأن وكانت تلك العائلة عائشة بالرغد والسعة على احسن حال تنقاد الى رجل عظيم وهو رئيسها ومدبر امورها وحامي ذمارها فلم يكن من يخالف له امراً ولا نهياً . يرجع امر الخلاف بين افرادها الى حكمه فما حكم هو به نفذ بلا معارضة وكان غيوراً على مصالحها كأب لها محباً ومحبوباً من الجميع وكان فتيان تلك العائلة وشبانها يسلكون بالحشمة والوقار مع من هو اكبر منهم سناً وقدراً والكل متحدون بالقول والعمل فعظم بذلك نفوذ تلك العائلة . ولم تكن شبانها تصرف اوقاتها باللهو والبطالة بل بالعمل والنشاط ومازالت ترقى في سلم النجاح حتى رزأها الدهر بفقد رئيسها فحزن الجميع عليه حزناً لا يقدر ولما انقضت ايام حزنه دخل وا أسفاه الى تلك العائلة شيطان المسكر فجنحت شبانها الى معاطاة الشراب وحامت حول موائد اللذات فاختلّ عقد نظامها . وكان ذلك داعياً لانقسامها فانقسمت الى حزبين وسرى بينهم داء الضرائر وتنافرت القلوب ولم يكن الكبار من الحزب الواحد يتحاشون الكلام بحق افراد الحزب الآخر امام الصغار فرسخت في نفوسهم البغضاء واخذت تنمو كلما نما مع ان الحزبين متداخلان بقرابة اشدّ التداخل (وكما يقال سدي بلحمة) ومع ذلك فتح باب لاصحاب المفاسد والنميمة حتى اشتدّ البغض وعظم الحقد في صدور كل من الحزبين . ولما اطلقت الشبان لنفسها عنان الشهوات واصطفوا

حول موائد المسكرات وجد في العائلة من ادمن المسكر من عزبان ومتزوجين فكان الابن يضرب اباهُ ويخزي امه والرجل يخاصم زوجته ويرعب اولادهُ عند ما يدخل البيت وزاد القيل والقال بين الحزبين وضعف الامل باصلاح ذات البين

وحدث في بعض الاعراس . واني لارتجف من ذكر ما حدث . انه كان شبان من كلا الحزبين في ذلك العرس فوقع خصام بين اثنين واحد من هذا الحزب وآخر من ذاك اتصل بينهما الى الضرب من ثمَّ اخذ كل حزب ينتصر لمن هو من حزبهِ وكان السكر آخذاً من الشبان كل مأخذ والاحقاد كامنة طيَّ الصدور فاتسع الخصام وآل الامر الى استعمال السلاح فسقط احد الحزبين قتيلاً من ضربة سكران من الحزب الآخر فعظم الخطب وازداد تساقط القتلى فكانت تداس بالارجل ولا من يعي من شدَّة السكر ولا من يسكن غضب الحزبين حتى اشرفوا على الفناء وكان قد علا صراخ النساء الى عنان السماء هذه تصرخ اذ ترى اخاها يطعن زوجها وتلك تولول اذ ترى زوجها يطعن اباها – ثم تنهد الشيخ وقال آواه من عواقب السكر الوخيمة – فلقد قتل واحسرتاه اخي ووالداي في تلك الحادثة المشؤمة وجُرِحت وجَرَحت ابن عمي ايضاً. ولما رأيت ما يشيب الاطفال من هول تلك الحادثة همت على وجهي وتركت الدار تنعي من بناها ثم تغربت في بلاد بعيدة وهناك هداني الله وتبت اليهِ . من ثم

نذرت على نفسي ان ابذل جهدي بنجاة من صيد باشراك ذلك المهلك وليتهُ يمكنني ان أسِمَ كل سكريّ لا يتوب بسمةٍ لئلا يدنو منهُ احد فيتنجس بهِ . أواه من المسكر القتال متلف الصيت والصحة والمال والعيال . ولم يبقَ لي نسيب من تلك العائلة الاَّ ابنة لاخي مبسام . فوقف فوآد وقال باسمة . فتعجب الشيخ وقال ومن اين تعرفها فقال انا ابنها فوآد وانت عمي يا الله ما اعجب هذه الصدفة

فنهض الشيخ اليهِ والدموع تذرف من عينيهِ وقال مندهلاً انت ابن باسمة انت ابن باسمة وابن هي الآن ثم تقدَّم وقبلهُ بلهفة وقال اشكر الله اشكر الله لني الآن احسب نفسي سعيداً لاني نجيت من الموت من هو كابن لي ثم ضمهُ الى صدرهِ وقبلهُ ايضاً ثم قال ليتني عرفت ذلك قبلاً حتى كنت اذهب واراها لاني مشتاق اليها جداً . فقال فوآد وقد ملأ السرور قلبهُ لم اكن اعلم حينئذٍ انك عمي ولعل الله سمح بذلك لاني ربما كنت لا اريد الرجوع ساعتئذٍ . وبعد ايام وصلت السفينة الى كلكتا حيثما كان الشيخ مقيماً فنزل فوآد معهُ الى المدينة وبقي بتاجر مدَّة ثلاث سنوات كان في اثنائها منشغل البال من جهة اهلهِ يود ان يرسل اليهم تحارير ويخبرهم عن حالهِ وعما حدث له لكنهُ لم يكن يجد الى ذلك سبيلاً فكان رجوعهُ اليهم بغتة كما تقدَّم الكلام

الفصل الثالث عشر

اثمار التوبة

وكان بعد ما رجع فؤاد انهُ قصَّ على اهلهِ كل ما جرى لهُ واخبر باسمة عن عمها الشيخ سليمان وانهُ لم يزل في قيد الحياة وانهُ سيحضر اليهم بعد ايام قليلة ويقيم معهم فازداد فرح باسمة بذلك خصوصاً اذ علمت ان ابنها قد تاب عن بغيهِ ونجح نجاحاً عظيماً بواسطتهِ

ولما شاع في المدينة خبر رجوع فؤاد كان الناس بين مصدّقٍ ومكذّبٍ فجاء كثيرون الى بيتهِ ليروهُ ويهنئوا عائلتهُ بعودهِ سالماً ولما رأوهُ تعجبوا كثيراً وكانوا يتحدثون بامر الشخص الذي مات وندب كأنهُ فؤاد والحق يقال ان فؤاداً قد مات على نوعٍ ما لكنهُ كمن قام من الموت استجابةً لصلوات امهِ . ثم بعد ايام اخذ في العمل فافتتح متجراً متسعاً واستحضر من البضائع المتنوعة ما ادهش سكان السعدية فرجعت ثقة الناس بهِ وصار يتقدم بالنجاح يوماً فيوماً وظهر لدى الجميع حسن سلوكهِ بعد

توبته ما كان يعمله من الاعمال الخيرية اذ وفى ديونه السابقة وكان يخطب في المحافل مبينًا اضرار المسكرات بكل بلاغة واهتم بتأليف جمعية غايتها الامتناع عن شرب المسكرات فتيسر له ذلك وكتب على لوح كبير بالقلم العريض هذه الآية

لاتنظر الى الخمر اذا احمرّت

حين تظهر حبابها في الكاس

وساغت مرقرقة. في الآخر

تلسع كالحية وتلدغ

كالافعوان

ثم ذيلها بهذا البيت

"واهجر الخمرة ان كنت فتى

كيف يسعى في جنونٍ من عقَل"

وعلقها في صدر مكان الاجتماع . وكان يبذل جهدهُ في نصيحة الشبان مكرّساً نفسهُ لمساعدة كل من كان في خطر من الوقوع في عادة السكر السيئة . ومن ثمّ كان يقابل حالتهُ بحالة الطياشة التي كان عليها قبلاً فظهر لهُ ان الفرق بينهما كما بين السماء وجهنم وهكذا امهُ وامرأتهُ وحماتهُ كنّ يقابلنَ ذلك ويرفعنَ انفسهنّ بالشكر لله الذي نظر اليهنّ . فرتعت السعادة في ذلك البيت وساد السلام والاطمئنان فلم تعد افكارهنّ تقلق لغيابهِ كما من قبل لانهنّ كنّ يؤكدن ان غيابهُ لا يكون الا لعمل خيري او لمأثرة حسنى فنجح بعد موتهِ النجاح الادبي والمادي معاً ولم يزل يرتقي في سلم النجاح حتى حصل على املاك ومقتنيات عظيمة يكل عنها الوصف فتعزّت باسمة في اواخر حياتها اعظم تعزية وكانت تثابر على اقامة الصلاة العائلية والكلُّ باذل قصارى جهدهِ في عمل الخير مسروراً في حياتهِ الا ان فؤادًا كان لم يزل في صدره اثر تلك الطعنة التي طعن بها نفسهُ فكانت تذكرهُ بسالف حياتهِ الشقية ذكرى لم ينسها ابداً

انتهى